الرواية العربية

الصهبة

رواية : محمد جبريل

الرواية العربية

الصّهبة

رواية

محمد جبريل

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٠

اللوحات مهداة من الفنان : محمود فرج

الاخراج الفنى : جرجس ممتاز

.. والأجيال من الناس تموت
منذ زمن الالـه ((رع))
ويحل مكانها اجيال اخرى
ان ((رع)) يشرق بنفسه فى الصباح الباكر
ويغرب ((آتوم)) ليستريح فى ((منو))
والرجال تلقح ، والنساء يحملن
وكل أنف يستنشق الهواء
والاصباح يأتى ، ويلدن كثيرا ..

(أنشودة عثر عليها فى مقبرة كاهن آمون ((نفرحتب)) بطيبة)

خلف المقهى وراءه ، واتجه الى شارع سيدى نصر الدين ..
طال انتظاره لبدر المنشاوى .. لما بدأ فى لعب « عشرة » جديدة . قرر أن يذهب الى مكان الحفل بمفرده .. لا يبعد عن طريقه اليومى ، بين المقهى والبيت ..

ولد فى السيالة .. شقة تطل على مسجد المسيرى .. لم يتركها الى حى آخر ، الا للمكتبة خلف المرسى أبى العباس ، أو للكلية فى محرم بك ، أو لزيارة أخواله فى العطارين ، وآخر أعمامه الأحياء فى اللبان .. مع ذلك ، فانه لم يعرف بأمر الحفل ، الصهبة ، المولد ، الجلوة ، حلقة الذكر .. لم تسمه أحاديث المقهى على نحو محدد .. المؤكد أنه قد مضى عليه أيام ، وربما أسابيع . التفصيلات الدقيقة واختلاف الحكايات ، وشت باتصال ما يجرى ..

قال جابر محجوب :

ــ للموالد مواعيدها •• أما هذه الصهبة فقد أتت فى أغسطس ••

مط شفتيه ، واستطرد :

ــ ربما تطول حتى ينزع النقاب عمن تطلب ذلك ••

قال المنشاوى :

ــ امتنعت المرأة يوما عن رفع نقابها •• فتوعدها الشيخ أن تظل عاقرا ••

سأل باستغراب :

ــ لماذا يزايدون على المرأة ، ما داموا لن يدفعوا مهرا حقيقيا ؟ ••

قال المنشاوى :

ــ نسيت أنها متزوجة ••

قال جابر محجوب :

ــ ليست امرأة واحدة ••

ولجأ الى يديه موضحا :

ــ كل من يشق عليها الانجاب ، تقف فى المزاد ، حتى يرفع النقاب ، فيزول العقم ••

همس بحيرة :

ــ مجرد رفع النقاب ؟ ..

قال جابر فى لهجة تسليم :

ــ هذا هو ايمانهم ..

تشابكت الروايات ، وامتدت ، وتناقضت ، وان شكلت عالما غريبا ، شغله الفضول للتعرف اليه . يغير اتجاهه ــ لا بسير فى شارع محمد كريم ، الى مستوصف الأنفوشى ، ومنه الى شارع العوامرى ، فالسيالة . البيت ، يفصل بينه وبين مسجد المسيرى زقاق صغير ، وبطل ، من الواجهة ، على شارع السيالة ــ يميل الى طريق ترابى ، على جانبيه بيوت ودكاكين ، تنتهى الى ساحة الصهبة ..

الصهبة ؟ ! ..

هذه هى التسمية ، حتى يشاهد ما ملأت به أحاديث المقهى خياله ..

اعتذر بدر المنشاوى لانشغاله فى الطاولة . وعد بمرافقته عصر اليوم التالى . قهره فضوله ، فقبل الانتظار حتى ينتهى الدور . وعندما رأى الطاولة تطوى ، وتفتح ، ويتهيأ اللاعبان لبدء « عشرة » جديدة ، قام الى الصهبة بمفرده ..

***

غلبته الدهشة ..

بدا المكان ـ بأنواره وزيناته وأعلامه وبيارقه ، والزحام الهائل ـ غريبا عما ألفه فى موالد أولياء الحى . تلاغطت ـ وتداخلت ـ الأدعية والابتهالات والأذكار . تطوحت الأجساد فى حلقات متقاربة ، ومتباعدة . تزاحم الكثيرون على الأرصفة ، وفى مداخل البيوت والشرفات والنوافذ والشوارع الجانبية ..

ظل فى موضعه على الناصية . شغلته الفرجة ، وامتصت الغرابة من حوله ..

سيدى نصر الدين ليس ولى هذه الليلة ، وليسوا هم أحباء ولا مريدين ولا محاسيب . انما نزلوا فى حضرته . أقاموا حفلهم فى الساحة المقابلة لضريحه ، باعتباره أحد أولياء الله . لم يدعهم سيدى نصر الدين . لا عمليات ختان أو باعة حلوى وحمص وفول سودانى وبخور ، ولا العاب مولد وركوب خليفة ، ولا صلة للذاكرين بصاحب الضريح : لا ابداء اشتياق ، أو وصف خوارق ، أو اضفاء الصفات على صاحب المقام . لم يكن مولدا أو يشبهه . شاهد موالد أبى العباس والبوصيرى وياقوت العرش وعلى تمراز . يخوض ـ منذ طفولته ـ مع أبيه زحام المولد . يسلم ساعده الى قبضة أبيه يتحركان ـ بصعوبة ـ فى تلاصق الأجسام والأعلام والرايات والنايات والطبول . يتمنى ركوب المراجيح ، فينهره



أبوه ، ويسحبه بعنف . يبدى الرجل عجبه حين يراه ساكنا ، لا يتحرك لذكر الله وسماع الأناشيد :

ـ اما أنك بلا ايمان .. أو تظن نفسك من الواصلين ! ..

لما كبر ، تردد على الموالد مع أصدقائه ، وبمفرده . تكونت فى ذهنه صورة الموالد ، يستدعيها اذا أتت سيرتها أمامه : المداحين ورواة القصص ومنشدى الأذكار ومواكب الصوفية وألعاب الحواة والمراجيح والنشان والأعلام والمشاعل والطبول والمزامير . اختلف المشهد أمامه عن الصورة التى ألفها . ليسوا من طرق آكل الزجاج ، وازدراد الأفاعى ، والقبض على الحديد الملتهب ، وغرس الأسياخ فى الخدين ، وطعن الجسم بالخناجر ، وابتلاع النار ، ولا من الشاذلية ولا الرفاعية ولا المولوية أو الدراويش . من طالما تابع مواكبهم فى موالد أولياء الحى ..

استند الى الباب الحديدى لبيت ، أول الميدان الصغير . أهمل ـ لطول قامته ـ وقوف العشرات أمامه ، يشاركون ، ويشاهدون ، ويعانون الزحام الذى تزايد ، فصار خانقا ..

انفسح المكان ، لما تشابكت أيدى الرجال . وقفوا فى حلقة ، متجهين الى الداخل ، وتشابكت أذرع النساء داخل الحلقة ، متجهات الى الخارج . تعالت الدفوف والمزامير

والدريكات والشخاليل ، وبدأ الرقص : يتحرك الرجال الى الداخل ، وتتجه النساء الى الخارج • يرفع الرجال أيديهم ، فيسهل طريق النساء فى العودة الى الداخل ، والعشرات أفسحوا للراقصين ، صنعوا دائرة أوسـع لصق الأبواب والجدران ، وعلى مداخل الشوارع ••

شده انسجام الموسيقى مع الرقص وحركات التوقف ، تبديل الأوضاع والحركات ، تشابك الأيدى والأذرع وانفصالها، كأنه الذكر ، وان اختلف الذكر بتطوح الرءوس ، واهتزازات الأجساد والأيدى ، والدعوات الرتيبة ، المتتالية ••

بدا كل شىء جديدا ، وغير مألوف • لكنـه ظل مشغول الخاطر باللحظة المتوقعة • طالت أحاديث المقهى حولها • أطالت فى رواينها • وشتها بالألوان والظـلال • ليسوا من الغجر • للغجر سحنهم ولهجتهم وزيهم • ولم تشر الأحاديث الى أنهم يمارسون الغناء وأعمال السحر والتنجيم والوشم وختان البنات ، ولا ضبطوا متلبسين بسرقة بيت أو دكان أو خطف طفل ، ولا هم جماعة مغلقـة ترفض الاختـلاط • النسـاء المنقبـات يحلمن بالخصوبة • الجميع يشغلهم علاج العلة • من يرفع النقاب يظفر بثواب انقاذ حياة ••

تنامى فى داخله فضول المشاهدة • لم يقو على كتمه ، صرفه

عن بقية الأحاديث ، دفعه الى مغادرة المقهى دون أن يصحبه المنشاوى . أهمل ما عرف عنه من ميل الى الصحبة ، اذا غادر البيت أو المكتبة ..

***

حى ! ..

أرعشته الصيحة المفاجئة . اقتحمت داخله بالخوف ، أو بما هو أقسى . تلفت حوله فى حيرة . رافقت عيناه اتجاه النظرات نحو مدخل البيت المواجه للمسجد . تدافع منه صغار وكبار وزغاريد وأدعية وابتهالات ..

استكان الزحام فى موضعه لفترة . هدأ صخب النشوة . ثم غادر البيت ثلاثة رجال فى أواسط العمر ، يرتدى أحدهم ثياب المشايخ . ويرتدى الآخر الثياب البلدية ، وامرأتان سافرتان، ارتدتا الملاءة اللف ، تتوسطهما امرأة ارتدت ملاءة مماثلة ، وان أرخت على وجهها نقابا ، لا تبين منه حتى العينان ..

تدافعت الأجسام لصق الجدران . شكلوا ــ وسط الساحة ــ ما يشبه الدائرة . اتجهت النسوة الثلاث الى منتصف الدائرة تماما ، واتخذ الرجال مقدمة الصفوف المحيطة . بدت التصرفات محسوبة ، والجميع على معرفة بتوالى التصرفات ، وما يجب اتخاذه ..

استندت المرأة ــ فى المنتصف ــ الى يدى الأخريين باستكانة • اقترب من النسوة رجل لا يختلف ــ فى زيه أو هيئته ــ عن الآخرين ، فيما عدا شومة مقروطة تهزها يده ••

قال الرجل :

ــ نبدأ المزاد ••

تدخل الشيخ :

ــ هل يعرف الجميع ما يجب عمله ؟ ••

قال الرجل :

ــ لا غرباء بيننا ••

وتعالى صوت :

ــ مائة ••

تعالت من بعده الأصوات :

ــ مائتان •• ثلاثمائة •• أربعمائة ••

تبين سهولة المزايدة ، فعلا صوته :

ــ ألف ! ••

ترددت الحلقة • ثم تعالى صوت :

ــ ألف ومائة ! ••

قال مدفوعا بجرأة لم يعهدها فى نفسه :

ـ ألف وخمسمائة ! ..

تعالت الأصوات :

ـ ألف وستمائة .. وسبعمائة .. وثمانمائة .. ألفان ..

قاطع الأصوات المزايدة :

ـ خمسة آلاف ! ..

المزاد كلمات . يحترمون الأرقام والبداية والنهاية ، حتى تنتهى الصهبة . لكنه ليس مطالبا باحترام شيء ، لا الأرقام ولا الطقوس أو الممارسات الغريبة ، ولا كل هؤلاء الذين اجتذبتهم الغرابة ..

أسند الرجل راحته الى كتف المرأة ، وقال :

ـ حلال عليك ! ..

حدث ما حدث كأنه حلم . تردد فى الاقتراب من المرأة المنقبة . زاد فى ارتباكه النظرات المحيطة ، تنتظر ، تستحثه على التقدم ..

أحاديث المقهى حددت الصهبة منذ بدايتها . يرفع النقاب ، ويمضى بالمرأة خطوات . تتعالى الزغاريد والتكبيرات ، وتعود المرأة من حيث أتت ، وينصرف الجميع . لم تشر الأحاديث الى اللحظة التى تلى رفع النقاب : هل يتأمل الوجه ، أم يخفض

نظره ؟ •• وان لاحظ ــ فى وقفتــه ــ أن من سبقوه اتجهوا بأعينهم ــ فور نزع الحجاب ، الى بعيد ••

رفع النقاب بيد مترددة • حراب النظرات المحيطــة تمنعه من التلفت • الوجه كأنه الجنة • ليست من السيالة ولا بحرى ، ولا من الحياة نفسها ، كأنها تنتمى الى عالم السحر الذى يجوس داخله ••

نسى ــ فى اللحظــة التالية ــ كل ما وعــاه من أحاديث المقهى • اقترب بفمه ، وقبلها • سرت بعدها ــ فى داخله رغبة ، فرضت سيطرتها ، فدانت لها تصرفاته • طوق الجســد المنتفض بساعدى الجنون • لا يذكر ان كانت قد حاولت التخلص منه ، وان تذكر ــ فيما بعد ــ أن نهديها اصطدما بصــدره ، وهو يحاول احتضانها • ربما أسكتتها المفاجأة ، ولعلها حاولت ابعاده ، فلم تفلح فى انفكاك من ساعديه • فرضت الرغبــة نفسها ، فنسى كل ما حوله • نسى اللمة المحيطة ، والسكون الذى أذهلتــه المفاجأة • حين أعاد تذكر ما حدث ، لاحظ أن المرأتين لم تمنعاه من فعلته ، ولا الرجال حاولوا دفعه بعيدا • تركوا المرأة فى حضنه ، حتى صحا على الوجوه التى لفها الذهول ••

لم يدر بباله ، كيف يواجه اللحظة التالية ، ولا ماذا يفعل اذا اصطدمت عيناه ــ ثانية ــ بالأعين الملتفة حوله ؟ ••

تحركت الجفون ، فأيقن من زوال المفاجأة ..

تراجع الى الخلف ، فأفسحوا له الطريق ..

عدل من وقفتــه ، وســـار الى الأمام ، فانفرجت اللمــة الصامتة . سار بخطوات متثاقلة ، كأنه يجر خوف الحياة كلها ..

بدت المسافة من منتصف الساحة الى أول شارع حدأية ، بعيدة ، أو أنها المستحيل . ماذا يفعلون لمن يخالف ما توارثوه؟.. ولمـــاذا تركوه حتى أنهى ما فعل ؟ .. ومن أين تأتيه ضربــة الغضب ، المقبلة ؟ ..

***

لم يصدق ــ وهو يتجه الى البحر ــ أنهم تركوه . لم يكن الطريق طريقه . حدث ما حدث بسرعة ، أملته رغبة مفاجئة ، لم يقو على كتمها . تصرف بعفوية ، أو بما دفعه اليه الجنون ..

تعثرت خطواته ، لا يدرى ان كان عن تعمد أم خوف . همه أن يغادر المكان ، يجـــاوز حلقة الأعين ، يبتعد ويبتعد ، الى حيث لا يكون أحد من هؤلاء الذين امتلأت بهم ســـاحة الصهبــة ..

نظر وراءه ، فهدأت نفسه . تماسكت خطواته . صارت أقرب الى الهرولة ..

فى اتجاه شارع قصر رأس التين الى شاطىء الأنفوشى ، أعاد التلفت • ثم مال الى شارع بيرم التونسي • وسلك حوارى وأزقة ، تفضى به الى طريق البيت ••

***

أبدت عجبها للرجفة التى رافقت استيقاظه :

ــ خفت عليك من طول النوم ••

تساءل وهو يتلفت ــ بعفوية ــ حوله :

ــ هل كنت أحلم ؟ ••

قالت باشفاق :

ــ اللهم اجعله خيرا ! ••

أضافت وهى تفتح النافذة المطلة على شارع السيالة :

ــ أعددت الافطار ••

تذكر أنه لم يتناول طعاما منذ صباح الأمس • تناول افطاره فى المكتبة • ثم اكتفى بأدوار الشاى ، يحملها اليه عم درويش صاحب الكشك الملاصق لزاوية سيدى أبى الفتح ••

قبل أن يتجه الى الصهبة ، عاد الى البيت ونام ، فلا غداء ولا عشاء ، وها هو ذا نهار جديد ، ونفسه مصدودة ••

هل كان يحلم ، أم أن الذاكرة تستعيد ما جرى ؟ ••

قال فى صوت هامس :

ـ انى متعب ! ••

قـالت :

ـ نمت كثيرا •• هل أنت مريض ؟ ••

قـال :

ـ ربمـا ! ••

داخلها قلق :

ـ ألن تفتح المكتبة ؟ ••

وهو يعتدل فى رقدته :

ـ سأظل فى السرير ••

ثم وهو يسحب الغطاء على وجهه :

ـ انى متعب ! ••

غادرته بنظرة مشفقة ••

تداخلت أصوات الشارع ـ أسفل النافذة ـ بدعوات الصهبة وأناشيدها وأغنياتها وأذكارها • تصور ـ للحظة ـ أن

الصهبة تمر أمام البيت ، لكنه اعتدل فى نصف القومة ، واستأنف الرقاد ، لما أصاخ السمع ، فتوضحت أصوات الباعة ، وأصحاب الدكاكين ، والمنادين من الشرفات ، والمارة ..

***

فى لحظة أو أقل ، حدق الرجل ، ومضى ..

تراجع الى الخلف ..

أطال الرجل نظرته ، كأنما ليتيح له التثبت من ملامحه : حلال عنيك ! . القامة الطويلة ، النحيلة ، والشعر الأكرت ، والبشرة السمراء ، والشفة المتدلية ، والعين التى تعانى سحابة بيضاء . هو الرجل نفسه ، وما جرى لم يكن حلما أو يشبهه ..

تراجعت خطواته ـ بتلقائية ـ وصعد السلم ..

ولد فى السيالة . تعرف الى الوجوه ، وألفها . حتى من لم تقم بينه وبينهم صداقة أو جيرة أو معرفة ، يستدل بالملامح الظاهرة ، يعرف وان لم يسلم أو يحادث ، أن من التقى به هو من أبناء الحى . اذا التقيا خارج السيالة ، يطيل كل منهما النظر الى الآخر ، أو يبتسم . ربما سأل بهمس : هل أنت ؟ .. أو هز رأسه بما يعنى المعرفة . التقى بالرجل للمرة الأولى فى ساحة سيدى نصر الدين . لم يكن شاهده فى السيالة من قبل ، لا فى الشوارع ولا المقاهى والمساجد القريبة ..

تظاهر بالتصديق ، وان لم يطمئن الى رأى أمه ، بأن التعرف الى الملامح لم يعد شرطا لتبين ان كان الشخص من بحرى أو من أحياء أخرى . توافد على الحى أفراد وأسر ، عشرات ومئـات . زحفت الغربة ، فلم يعد أحد يدرى من جاره ، ولا من هو عابر طريق ..

***

فتح النافذة ، فطـار عصفور كان يقف على الحافـة ، وهبت ـ من الشرق ـ نسمة منعشة .

قـال :

ـ مضى على وفاة أبى تسعة أشهر ..

قالت الأم وهى تعيد ترتيب فراشه :

ـ الفاتحة له ! ..

أنهت قراءة الفاتحة بآمين مرتفعة . ثم قالت :

ـ تعيش وتفتكر ..

أضافت متسائلة :

ـ لمـاذا ؟ ..

قال بعصبية كأنه ينفى اتهاما :

ـ لا شيء .. تذكرت ذلك الآن ! ..

تطلعت الى الصورة المعلقة على الجدار :

ـ لعل روحه تطلب الرحمة ..

قــال :

ـ بعد أسبوعين يتخرج ماجد فى كلية الهندسة ، ويواجه مسئولياته .

وقفت فى مكانها :

ـ ماذا تعنى ؟ ..

غالب تردده :

ـ أريد أن أكلمك فى مسألة تخصنى ..

وهى ترمقه بنظرة متوجسة :

ـ لم تتذكر أباك مصادفة ؟ ! ..

اصطنع ابتسامة :

ـ تذكرته عندما قررت أن أكلمك ..

هزت رأسها تستحثه على الكلام ..

قــال :

ـ حياة البطالة تقتلنى ! ..

شوحت بالمنفضة فى وجهه :

ـ لو أنك أكملت تعليمك .. لكنت الآن فى وظيفة محترمة ! ..

تململ بضيق :

ـ لا أطلب التعديد .. ولكننى أطلب رأيك ..

ألف من أمه تذمرها على كل ما يفعله . رفضها لآرائه وتصرفاته ، وتغيره منذ وفاة أبيه : انقطاعه المفاجىء عن الدراسة. أحاديثه الساخطة ، الرافضة لما جرى . خروجه الى المقهى من الضحى ، فلا يعود قبل انتصاف الليل . التذمر جسر الموافقة لكل ما يطلبه . تدهش لمجرد أن ما طلبه جال بخاطره . تبدى غضبها ، وتعيب ، وربما نالته بالشتم ، ثم تهز رأسها ـ فى النهاية ـ بما يعنى الموافقة ..

قالت فى نفاد صبر :

ـ ماذا تريد ؟ ..

كأنه ينتظر السؤال :

ـ المكتبة ..

تقوس حاجباها :

ـ ما لها ؟ ..

قال وهو يعدل ـ بعفوية ـ ياقة البيجامة :

ـ منيرة تزوجت •• وماجد يستعد للوظيفة ••

أضاف بسرعة كأنه يقضى على التردد داخله :

ـ حرام أن تظل المكتبة مغلقة ••

حدقت فيه بنظرة غير مصدقة :

ـ انها كل ما تركه أبوك •• فهل ترثها بمفردك ؟ ••

وهو يقاوم انفعاله :

ـ ولماذا لا أديرها لحسابنا ؟ ••

اصطنعت التعجب :

ـ وتهجر المقهى ؟ ! ••

شاب صوته تذلل :

ـ أريد أن أستقل بحياتى •• فساعدينى ! ••

قالت فى لهجة جادة :

ـ أفضل أن أبيع المكتبة ليتقاسم ثمنها الجميع ••

وعلا صوتها :

ـ لا تنس أنى امرأة •• ولا مورد لى ! ••

قال بتعمد واضح للدهشة :

ــ أنت أمى كذلك .. وأنا مسئول عنك ! ..

غلب النشيج صوتها :

ــ من كان يتحمل مسئوليتى .. مات ! ..

مع أن أباه لم يعد هائل الطول ولا الضخامة ، مثلما كانت نظرته اليه وهو صغير . يأمره ، فيناوله الكتب والكراسات من الأرفف العليا ، لا يستخدم السلم مثل أبيه . واذا وقف بجواره ، تأمل الصلع الذى توسط رأسه الأشيب .. مع ذلك ، ظلت لأبيه مكانته القديمة . يهابه ، وينفذ ــ دون أن يجرؤ على السؤال أو النقاش ــ كل ما يراه . ربما ناقش مع أخويه آراء الأب وتصرفاته ، وجدوا فيها الخطأ والصواب . ولكن ملاحظاتهم ــ فى غياب الأب ــ لم تجاوز الهمس . أمهم وحدها كانت تسأله ، وتناقشه ، وتلاحظ ، وتعيب عليه أشياء ولكنها كانت تخضع دائما لآرائه ، تقبلها ، وتدافع عنها ، أمامهم : هذا رأى أبيكم .. فلا تخالفوه ! ..

كان الشعر هوايته .. لكن انزعاج أبيه بدا واضحا لما عرف نيته :

ــ كيف تفكر فى مستقبلك ؟ ..

قالت الأم :

ــ اتركه وما يفضله ..

قال وهو يهز قبضة يده :

ــ حتى أموت •• فأنا المسئول عن حياته ••

همس بقلق :

ــ ذلك ما أحبه ••

اقترب منه كأنه يهم بضربه :

ــ لن تعرف مصلحتك أكثر منى ••

ســأل :

ــ ولمــاذا القسم العامى ؟ ••

قــال :

ــ الكليات النظرية تخرج مدرسين أو متعطلين ••

أضاف وهو يضغط على الكلمات :

ــ المستقبل للكليات العملية ••

رسب أول عامين فى كلية العلوم • ونجح ــ بالخوف من أبيه ــ فى العامين التاليين • فلما مات أبوه ، هجر الدراســة بلا تردد ••

لم تصدق الأم : هل يهجر الدراسة بعد أن أوشك على بلوغ الغاية ؟ ! ••

أخلت وجهها للدهشة :

ـ تريد أن تصبح أقل من أخيك ؟ ! ..

قال وهو يهز رأسه :

ـ لا تشغلنى الكثرة ولا القلة .. ما يهمنى هو ما أطمئن اليـــه ..

استطرد من بين أسنانه :

ـ كان همه أن أصبح صورة منه ! ..

واجهته بنظرة غاضبة :

ـ كان أبوك رجلا فاضلا

دون أن يجاوز هدوءه :

ـ لا أنكر ! .. ولكنـــه اختار التجارة .. أما أنـــا ، فقد كان لى حياة أخرى ..

قالت لتنهى المناقشة :

ـ أكمل تعليمك .. ثم افعل ما شئت ! ..

زفر كأنه فقد صبره :

ـ لست ملزما بالسير فى طريق لم أختره ..

نطق فى ملامحها فزع :

ـ تريد أن تترك الجامعة ؟ ..

قال وهو يتجه الى خارج الشقة :

ـ بل تركتها فعلا ! ••

***

عرف الرجل من صوته • انشغل بفك اربطة الكتب ، وولى ظهره لواجهة المكتبة ، وللطريق ••

تهلل وجهه بفرحة حقيقيه ••

قال الشيخ عرفة الدجيشي :

ـ كنت أعدك لأخذ العهد •• لكنك خاصمتنا منذ رحيل ابيـك ! ••

لو أن الرجل يعلم ما طرأ على حياته •• انقطعت عن الصلاة فى المسجد • هذا ما تعلمه • فهل تعلم أنى تركت الكليـة ، ولم أعد مشغولا بشيء ؟ ! ••

لمـا عرض على أبيه فكرة الحاقه بالمعهد الدينى ، قـال أبوه فى عدم اقتناع :

ـ غاية ما يتاح له عمله بعد التخرج ، واعظ أو خطيب مسجد ••

وعلا صوته فى حسم :



ــ المستقبل فى العلم يا مولانا ..

أدهشته كلمات أبيه . يرفض التعليم الدينى ، ويصر على الكلية العمليه . ويصلى كل الاوقات حاضرا فى المسجد ، ويقرأ الاوراد وكتب التراث وسير الصـــالحين والتابعين ، ولا يمـــل التحدث فى كرامات الأولياء من ساكنى الحى ، ويحرص على زيارة الأضرحة ، وتقديم الشموع ، والنذور ، وربما ــ ان ألمت به وعـــكة ــ لجـــا الى الوصفات الشعبية ، وينزل من الجهـــة اليمنى للسرير ، ويمتنع عن السفر يوم الجمعة ، ويتشـــاءم حين تتحطم مرآة ، ويخشى المرور من تحت سلم خشبى ، ويتفاءل اذا لمح قطا أسود اللون ، ويحب أحاديث الغيبيات والخوارق ، وأسرار السحر والجـــان والعفاريت ، والأرواح الساكنة فى الطير والحيوان والزواحف ، وتأويل الأحـــلام ، ويهوى قراءة الطالع . ويثق فى سترة زواج البنات ، ويحرص على ارتداء الجلباب والعباءة . وحين اختار البذلة للسفر خارج الاسكندرية، عاد فقـــذف بها داخـــل الدولاب ، يسبقها قســـمه بألا يعود لارتدائها ..

كتم الشيخ حسرته ، وان ظل على رعايتـــه له . أباح له التردد على غرفته بياقوت العرش ، والبقاء فى المسجد بعد اغلاق أبوابه . أعـــاره الكتب الدينيـــة ، وروى له قصص الأنبيـــاء والصحابة وكرامات الأولياء ..

وقال له ـ يوما ـ بود :

ـ الزم حضرتى •• تجن خيرا باذن الله ! ••

حين وقف خارج مسجد ياقوت العرش حتى انتهت الصلاة على أبيه ، ووقف يتلقى العزاء ـ بين آخيه وعمه وأخواله ـ كان ذلك آخر عهده بالصلاة والمساجد • طال نومه الى الضحى ، ونسى وضوء الماء البارد ، والسعى وراء آبيه فى ظلمة ما قبل الفجر ••

قال وهو يغالب الحرج :

ـ أصلى فى البيت ••

قال الشيخ كالمتأمل :

ـ يومك كله فى المكتبة ••

واتجه اليه بنظرة حزينة :

ـ أنت تصلى قضاء اذن ؟ ! ••

خشى غضب الشيخ الدجيشى ، لو آسرف فى الكذب ، فسكت ••

قال الشيخ :

ـ سأنتظرك من غد ••

استطرد بلهجة باترة :

ـ ان لم تأت الى كل صلاة فى موعدها .. فسأعلم أنك هجرت طريق الله ! ..

***

أبوك مريض! ..

قلتها فى عدم تصديق . كأنك تعجبين لنضوب مياه البحر ، شروق الشمس من الغرب ، دنو معجزات الزمن الأخير ..

بدا فى رقدته على السرير ، الملتصق بالجدار ، من فوقه صورة له ، بالعباءة ، والعينين الحادتين ، والشارب الذى أهمل انسداله على الشفتين ، كأنه ينتمى الى عصر آخر ، يختلف تماما عن الجسد الممدد فى استرخاء ومسكنة ، ولايقوى على الحركة..

قلت ، وأنا أنقل نظراتى بينك وبينه ، أشفق من الفزع الذى كسا وجهك ، كأنك تمرضين بدلا منه :

ـ ماذا به ؟ ..

ـ لا أعرف ! .. شكا قبل النوم من ألم فى صدره ، وصحا فى هذه الصورة ..

جاء الطبيب ، وأجرى كشفه ، وهز رأسه ، وكتب أدوية ، ونصح ـ وهو يتسلم الأتعاب ـ بنقل المريض الى المستشفى..

رافقناه الى مستشفى البحرية ••

أشفقت لخوفك من موت أبى ، واصرارك على حياتـه : صليت ما لا يعد من الركعات ، وأطلقت البخور فى البيت ، وقرأت الفنجان ، وفتحت المندل ، وصنعت « عروسة » وخزتها من عين أسمائنا ، وأسماء الذين التقطتهم الذاكرة من الأقارب والجـيران ، وحتى من يترددون عـلى البيت ، ولا تعرفـين أسماءهم ••

قال طبيب المستشفى :

ـ لا فائـدة ! ••

نزعت الذهب من حول معصميك ، وهمست :

ـ هل يكفى ؟ ••

أعاد الطبيب قوله فى حسم :

ـ لا فائدة ! •• الأفضل أن يموت فى بيته ! ••

ذهبنا أربعة ـ أبى وأنت وماجد وأنا ـ لم تكن منيرة ، فى بيتها البعيد ، قد عرفت ما حدث ـ عـدنا ثلاثة أو أقل • لم يكن ما حل بك مجرد حزن ، ولا حتى فزع • بدا أكبر من كل المشاعر التى يمكن وصفها • أصبحت ـ فى الأيام التالية ـ أما أخرى غير التى كانت تملأ الشقة ، بتنقلها بين الحجرات ،

وملاحظاتها وأسئلتها وشتائمها . اليد التى تشيح ـ ان لم يعجبها الحال ـ فى غضب ، الفم الذى ينطق كل ما يفد اليه ، الحركة التى لا تهدأ بين الصالة والحجرات والمطبخ والشرفة والنوافذ وفتح الباب للطارقين ، ران عليها همود . لا تتحركين من مكانك فى الصالة ، تطيلين النظر الى الصـورة المعلقة على الجدار ، تتنهدين ، تستعيدين الذكريات فى صمت ، أو تروين ما ألفنا سماعه ، بعد أن تنظف منيرة المـائدة من آثر الطعام ..

اكتفيت بمتابعة الخطوات . فعل عمى وأخوالى كل ما يلزم: التعاقد مع « الفراشـة » والحانوتى وفتح المقبرة واستخراج شهادة الوفاة . لم أكن أعرف حتى أين يدفن أبى .. لم يكن يتيح لنا السؤال أو التصرف فى أى شىء . صيحة الزجر تلى الكلمة الأولى ، فنسكت ..

حين عدنا من مقابر العـامود ، لم يكن الحزن هو الذى يلفنى ، ولم تكن الراحة كذلك هى ما أحسست به . كأنى أبدأ ـ متأخرا ـ من جديد ..

أتناول الغداء ، فأعود الى المكتبة . وأتناول العشاء ، فأذهب الى المقهى . حل ماجد مكانى فى جلسة ما بعد تنـاول الطعام . حتى اليوم العاشر ، وربما أيام بعده ..

كنت تروين الحكاية المعادة : كيف كان أبى فى حياته ؟ .. متى وخزته بدايات المرض؟..ماذا قال فى البيت والمستشفى ؟..

المئات من أصدقائه وجيرانه فى جنازته • حيرة الرجال بالنعش : رفض السير الى جامع الشيخ لصلاة الميت ، وتوقف عند ياقوت العرش • أدوا الصـلاة ، فطار ــ والمشيعون يلاحقونه ــ الى مقابر العامود • ما رواه الشيخ الدجيشى عن علمـه وأدبه ، وقيامه بفرائض الدين ••

ماجد ينصت ، أو يتظاهر بالانصات • كأنه الشريط الذى يعاد من بدايته • لم أستطع صبرا • أعددت نفسى ــ قبل أن تبدأ الجلسة ــ لمغادرة البيت • ماجد مجامل • يظل فى مكانه حتى يتغلب الملل فى رواية الحكاية • تقومين ــ بذهاب منيرة ــ الى أمور البيت ، فيغلق عليه الحجرة ••

قال لمـاجد :

ــ افعل مثلى ! ••

قال ماجد :

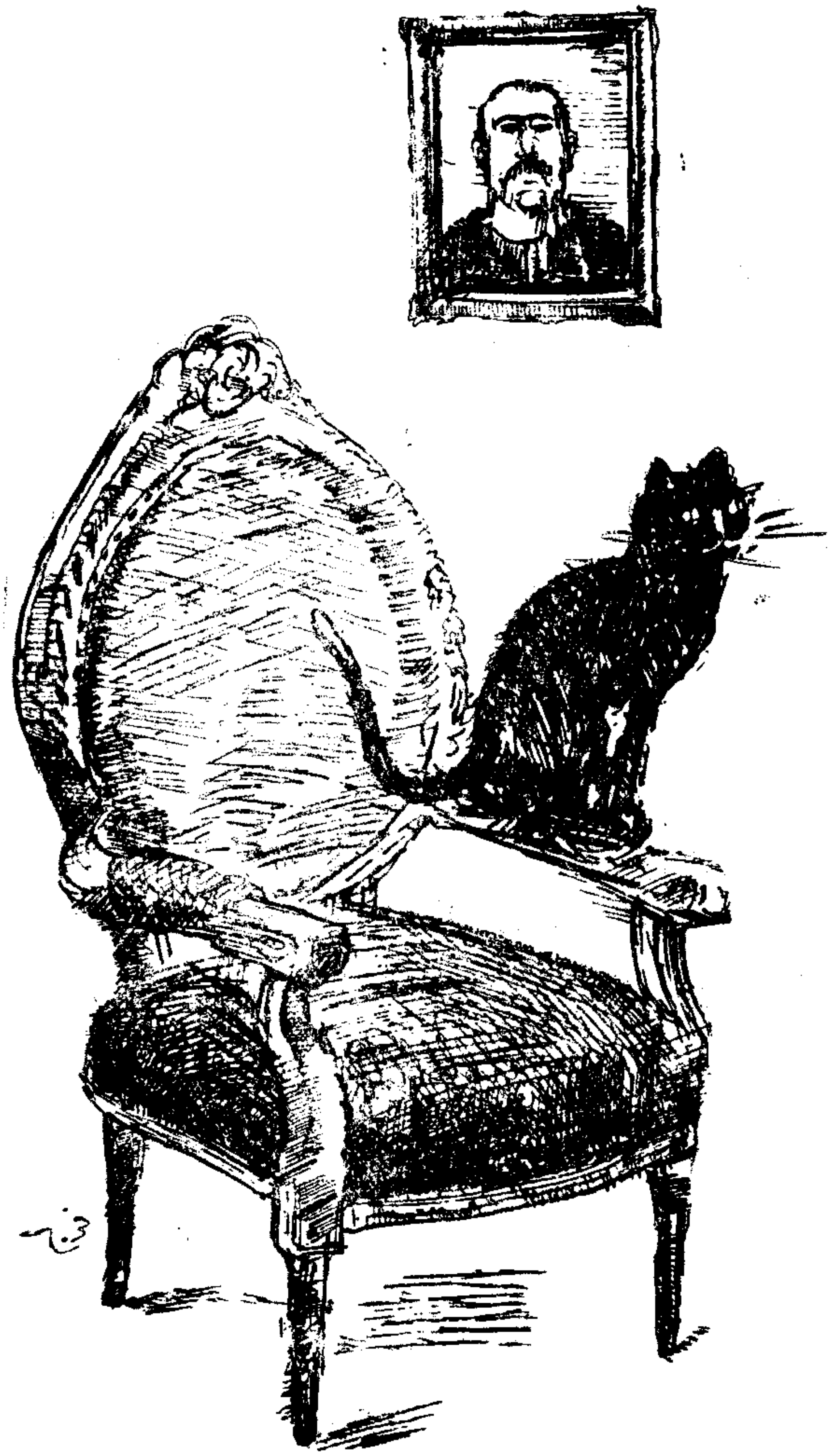
ــ تريد أن تحكى •• فهل أغضبها ؟ ••

غالب الدهشـة :

ــ هل قالت شيئا لم تسمعه ؟ ! ••

قال ماجد بتأثر :

ــ لا أستطيع أن أغضبها ••



قال وهو يغلق باب الشقة وراءه :

ـ اذن •• تحمل ! ••

***

لم يسائل نفسه ـ وهو يغالب خطواته الى داخل المقهى ـ هل اختار الجلوس فيه لأنه هو المقهى الذى كان يجلس فيه أبوه ؟ ••

كان يلمحه فى طريقه من ـ والى ـ ميدان أبى العباس • يجلس مع أصحابه على جانب الرصيف الموازى لطريق الترام • تسرع قدماه ، فلا يبدو أنه قد لمح شيئا ••

لما وضع المعزون أيديهم فى يده ، تبين وجوه من كان يجالسهم أبوه ، الى منتصف الليل ، يناقشهم ويحادثهم ، وربما فشا لهم أسراره الخاصة وأسرار البيت • ربما كلمهم عن أمه ، وعن ماجد ومنيرة ، وعنه • أبان لهم ما لم يكن متاحا لكل من فى البيت أن يعرفه ، أو يقترب منه ••

اطمأن الى اغلاق الباب وراءه ••

استقبله دفء المكان ودخان السجائر و « البوارى » وأصوات النرد والنداءات واغط الكلام ••

طلب شايا ، وتشاغل بالنظر ـ من وراء الزجاج المغلق ـ الى الميدان ••

تداخلت الظلمة والبرد ، والرذاذ الذى لم ينقطع النهار بطوله ، فخلا الميدان من الحركة ، ما عدا أشباح تعبر الطريق بسرعة ، وعربات ترام تعلن عن قدومها ، بصرير العجلات فى انحناءة نصف الدائرة ، أمام مسجد البوصيرى ، والحديقة الصغيرة ، المقابلة ..

تعرف الى أصحاب أبيه فى جلستهم المعتادة ، وان لم يتبينوا وجوده ..

كانوا من الأفندية . ثلاثة أو أربعة يبدو أنهم من الموظفين . يلتقون بعد صلاة العشاء الى ما قبل العاشرة . لاحظ أنهم لم يلعبوا الطاولة ، ولا الكوتشينة ، ولا أية لعبة مما يقضى بها رواد المقهى أوقاتهم . كانوا — دائما — يتحدثون . تظل الجلسة على حالها فى طريقه الى البيت ، وعودته منه . ينقص العدد أو يزيد ، ولكن المناقشات لا تنتهى ..

لمحه يوما ، فناداه ..

قدمه الى أصدقاء الجلسة ..

سأل أحدهم . فى حوالى الستين . بدا طربوشه مناقضا للرءوس العارية :

— فى أى مدرسة ؟ ..

قال أبوه :

ـ انه يستعد للجامعة ..

قال آخر ، يرتدى نظارة شمسية ، ويعتنى بزيه عناية واضحة :

ـ عليك بكلية التجارة لتساعد أبيك ..

قال أبوه :

ـ مجموعه كبير .. والأفضل أن يدخل الطب أو الهندسة ..

قال ثالث ، نسى ملامحه وهيئته ، حتى تذكره برؤيته فى المقهى . لف جسمه بعباءة من الصوف . أميل الى القصر ، ويعانى بحة كالشرخ :

ـ المهم استعداده الشخصى .. والكلية التى يحبها ..

قال أبوه فى حسم :

ـ مستقبل الشاب ليس هواية تخضع للمزاج ..

وأسرع فحادثه فيما ناداه من أجله ، ثم صرفه ..

مضت ساعة أو نحوها ، فأحس بوحدة قاسية تسللت الى داخله ، وسط تشاغله بالنظر الى الميدان ، وبتلقى التعليقات والنكات من الصخب حوله ..

قبل أن يخلى مكانه ، لحقه صوت :

ـ ممكن ؟ ..

نظر الى الكرسى ، واليد التى تناولته ، والوجه الباسم بمودة :

قــال :

ـ تفضـــل ..

بدآ بالتعليق على نوة قاســـم . أخلت البحر من مراكب الصيادين ، ومنعت الحياة بالقرب منه ..

قال وهو يفرك يديه :

ـ انها بالفعل نوة قاســـم .. قســـمت كل شئ ، حتى ظهرى ! ..

عقبا على مشاهدات الطريق ، وعلى أحاديث المقهى ..

صافحه ـ قرب منتصف الليل ـ مودعا :

ـ بدر المنشاوى ..

اطمأن للعودة فى الأيام التالية :

ـ منصور سطوحى ..

***

لمــا دخل جابر محجوب المقهى ، وسأل المنشاوى : هــل

ستنظم أرشيف الحقانيــة وأنت فى المقهى ؟ •• عرف وظيفــة المنشاوى ••

ضحك المنشاوى ، وصافحه ، وقدمه الى منصور ••

ــ جابر محجوب •• ميكانيــكى ســيارات بشــارع قبو الملاح ••

نهض نصف قومة • صافح ، وقدم نفسه :

ــ منصور سطوحى •• طالب بكلية العلوم ••

تأمل الوظيفتين ، فداخله قلق • رفض أبوه صــداقته من ابن عم هلول الفكهانى :

ــ صادق من هو فى ثوبك ••

وهو يغالب ارتباكه :

ــ عبد الهادى فى نهائى الطب ••

عبر تدلى شفته السفلى عن استياء :

ــ يهمنى أصله لا مهنته ••

أردف كلماته بنظرة صاعقة ، كومته فى نفسه ••

زار المنشــاوى فى عمــله • مكتب منزو فى بدروم سراى الحقانية • من حوله عشرات الدوسيهات والأوراق ••

تهلل المنشاوى لرؤيته ، وصحبه الى مقهى قريب يطل على ميدان المنشية ..

شدته العفوية فى تصرفات المنشاوى . دخل رئيسه الغرفة ، فواصل ما كان يتحدث فيه . يلقى العبارة البذيئة ، أو النكتة ، يعقبها بضحكة مسرسعة ، مبتورة ، كمن فاجأته شهقة ..

كان يوزع صداقته ودعاباته على أصدقاء المقهى . وكان له أسلوبه فى الصداقة . يسأل عن الأحوال ، وينصت ، ويعطى النصيحة . يظن كل واحد أنه له وحده ، يميزه ، دونا عن الآخرين . ان لاحت نذر غضب أو مشاجرة ، أنهاها بنكتة ، ولحقها بضحكته المسرسعة ..

صحبه المنشاوى — فى اليوم التالى — الى بيته . على ناصية شارع أبى نواية ، المتفرع من الحجارى ..

شقة صغيرة بها أثاث قديم . أصغر أخوته الخمسة . ينادى أباه بالحاج . شيخ فى حوالى الستين . عرف مهنته لما قال بدر : اذا أردت سمكا ، أطلبه من الحاج ! .. بدوا أصدقاء . حتى الشيخ كان يشارك فى نكاتهم ، ودخل المطبخ يعد الشاى بنفسه ..

قال الأب وهو يدنو بالصينية :

— هل التقينا من قبل ؟ ..

تأمل ملامح الشيخ :

ـ ربمـا ••

قال الأب :

ـ فى حضرة الشاذلية أمام أبى العباس ••

قال كالمعتذر :

ـ لست مشاركا فى الطرق الصوفية ••

أطلق بدر ضحكته المسرسعة ، وقال :

ـ منصور عضو جديد فى طَريقتنا ••

استطرد وهو يمثل قذف النرد :

ـ الطريقة القهوية الطاولية المسائية ! ••

قال له المنشاوى :

ـ أنت فى المكتبة فى الصباح •• وفى المقهى بعد الظهر ••

وفاجأه بالسؤال :

ـ ألم تعد تذهب الى الكلية ؟ ! ••

اكتفى بالقول :

ـ لم أكن أحبها ••

قال جابر محجوب :

ــ تركت التعليم ؟ ..

حك أنفه باصبعه :

ــ أنا الآن أعيد ترتيب أمورى ..

تكلم عن الشعر الذى أحبه ، وكلية الآداب التى تمنى دخولها ، واصرار أبيه على الكلية العملية . قرأ لهم من قصائده . أبدوا اهتماما وتعاطفا ..

قال المنشاوى :

ــ لو أنى مكانك ما سمحت لشىء سوى الشعر أن يشغلنى ..

أضاف متسائلا :

ــ ألا تحبه ؟ ..

شاب صوته توتر :

ــ ولماذا أكتبه ؟ ..

قال المنشاوى :

ــ اذن .. هبه كل وقتك ..

قال جابر محجوب :

ـ هل يأكل شعرا ؟ ! ••

استطرد متسائلا :

ـ والمكتبة ؟ ••

قال منصور :

ـ أنا واحد من أربعة يملكونها ••

قال المنشاوى :

ـ لست أدرى ان كان شعرك مما يصلح للموالد •• لكن نصيحتى لكل من يحب شيئا أن يفعله ! ••

***

أثارته الضحكة المبتورة ، الصادرة من المراكب المتناثرة فى شاطىء الأنفوشى ••

كان الجو باردا • وشاطىء البحر خاليا من القعود والمارة، والكبائن مغلقة ، والسحب غطت الشمس تماما ، فلا يبين الوقت عن ساعة محددة ، واصطدام الأمواج بالمراكب يعمق من الوحشة التى التف بها المكان ••

عاد ـ بعفوية ـ ونظر ••

لم يكن قد شاهد المرأة من قبل • بدت ـ بالملاءة المنسدلة



على كتفيها ، وشعرها الذى عقصته كذيل حصان ــ غريبة عن بحرى . ولم يتعرف اليها فى أحاديث أصدقاء المقهى ..

واتته جرأة ، فهمس لجابر محجوب وهو يسحب كرسيا بالقرب منه :

ــ رأيتك هذا الصباح ..

قال بجانب فمه :

ــ متى ؟ ..

ــ أنت .. والملاءة اللف ! ..

أطلق ضحكة مجلجلة :

ــ تتجسس على ؟ ..

دهمه ارتباك :

ــ مجرد مصادفة .. كنت أتمشى على الكورنيش ..

قال بدر المنشاوى :

ــ حتى البحر وصلت اليه أفعالك ..

قال جابر محجوب وهو يرفع راحتيه كمن يتقى خطرا :

ــ رآنى على الشاطىء ••

قال المنشاوى بجدية :

ــ البحر ملاك طاهر •• لو أنك لوثته لابد أن تبتلى ••

طمـأن برأسـه :

ــ أعـرف ••

استطرد وهو يتجه الى منصور سطوحى بعينين تدعيـان الغضـب :

ــ اسأله أين رآنى ؟ ••

قال منصور :

ــ لمـاذا لا تتزوج ؟ ••

قال جابر محجوب :

ــ الشاطىء فى الصباح يصلح للمغامرات السريعة ••

وشى صوت المنشاوى باستنكار :

ــ ماذا تعنى ؟ ••

قال جابر :

ــ أجرى مـلاليم •• والشقق كلهـا تمليـك •• فأين نسكن ؟ ••

قال منصور :

ــ مع أهلك ..

قال جابر :

ــ أهلى فى كفر الدوار ..

قالت له أمه :

ــ لماذا لا تتزوج ؟ ..

أضافت للدهشة فى وجهه :

ــ أنت الآن صاحب عمل ومقتدر ..

هل كان عليه أن يرث أبيه لتصح حياته ؟ .. نصحت بخطبته لفاطمة ، بنت عبد السلام العلوجى الموظف بهيئة الميناء . جميلة ومتعلمة وطيبة ..

ضرب أبوه المائدة بقبضة يده :

ــ أزوجه لأنفق على تعليمه أم على بيته ؟ ! ..

قالت مهونة :

ــ مجرد خطبة ..

وشى صوته بغضب :

ــ هل أصبحت خاطبة ؟ ! ..

وعلا صراخه :

ـ الافضل أن تنصحيه بمذاكرة دروسه •• آخوه الأصغر لحقه فى السنة نفسها ••

فوجيء بما قالتــه أمــه ، وملأ غضب أبيــه الصــالة ، فاتجه ـ بالخوف ـ الى حجرته ، وأغلقها عليه ••

روى جابر محجوب عن ظروفه منذ وفد الى الحي : سكناه مع ثلاثة من الوافدين مثله • أحس حاجته ـ بعد أشــهر ـ للمعيشــة بمفرده • اشترى سريرا وترابيزة صغيرة وشــماعة حائط ، من دكان للأثاث القديم بالعطارين • داخ حتى وجد غرفة فى حنية سلم بيت بشارع سيدى العجمى • غالب تعبه من ضيقها فى البداية • حاول استكمال ما ينقصــه ، حتى آلفها ، وألف الاقامة فيها ••

تجربته الأولى مع امرأة من الغجر • تحمل « الغــلق » وتنادى : أدق واطاهر • عرف ما لم يكن يعرف ، فتســاوى حبه لكل أصحاب الملاءات ••

ـ يبدو أنى اذا تزوجت •• فسأتزوج من الغجر ••

قال منصور :

ـ يشرفك أن يكون الزير سالم جد أنسبائك ! ••

قال جابر :

ــ ان لم أتزوج فى الدنيا •• فسأتزوج من بنات الحور فى الجنــة ••

قال المنشاوى :

ــ عشم ابليس ! ••

استطرد وهو يطلق ضحكة مكتومة :

ــ لو أنك أنفقت على الزواج ما تنفقه على علاجك •• فأنت الرابح ••

اتجه منصور الى جابر محجوب بعينين متسائلتين ••

قال جابر :

ــ أنا أكره الظلام •• والمقابر ! ••

وعرف منصور أن جابر يعانى لمسة أرضية تعتريه ، اذا دخل مكانا مظلما ، زقاقا أو نفقا أو مدخل بيت أو غرفة • لجــأ الى الوصفات والتعاويذ وأعمــال السحر • تطوح فى أذكار الحضرة بأبى العباس • زار الأضرحة ، وقدم الشموع والنذور ، ولكنه ظل على ابتعاده عن الأماكن المظلمــة • والاكتفاء بتقديم العزاء عقب الصــلاة على الميت ، فلا يواصــل السير الى المنــارة ، أو العامود ••

تأثر لكلمات جابر محجوب :

ـ كنت أبدى ترددا فى مرافقــة أبى الى المقــابر لزيارة أمى . وكان يقول لى معاتبا : هل تريد اغضــاب أمك فى قبرها لو أنك لم تزرها معنا ؟ ! ..

***

مع أنه أعد نفســه للرفض . تعيب عليــه أمه تصرفاته وآراءه ، تبكى ذكرى أبيه ، وتأخذ على أكبر أبنائه حبه لنفسه ، فان أمه واجهت فكرته بغضب لم يعهده فيها من قبل . اصطبغت عيناها بحمرة ، وسرت فى وجهها ارتعاشــة ، وتمتمت شفتاها بما لم يستطع تبينه ..

قال يحاول تهدءتها :

ـ ستظل المكتبــة باسم أبى .. كل ما أطلبــه أن نغير اســمها ! ..

لم تخف قلقها :

ـ أنا أعرف بك من نفسك .. اليوم تغير اسم المكتبة .. وغدا تصبح المكتبة باسمك ..

عانى للافلات من حصار نظرتها :

ـ ألم تقررى وهى مغلقة ، أن نعرضها للبيع ؟ ! ..

وهى تقاوم الغضب :

ـ كان شرطى أن يظـل للمكتبـة اسـمها •• مكتبـة سـطوحى ! ••

قـال :

ـ أغلقناها تسعة أشهر •• فتأثرت مبيعاتها •• والأفضـل أن نبدأ من جديد ! ••

ضغطت على الكلمات :

ـ سيظل للمكتبة اسمها ! ••

واستطردت وهى توليه ظهرها :

ـ ان لم يعجبك شرطى •• فعندى أغراب يوافقون عليه!••

لاحقته أنفاس أبيه منذ اليوم الأول : ايصالات الايجار ، فواتير الكهرباء • حتى كمبيالات التجـار والشركات • كأنه يديرها لحساب أبيه • ربما سأله زبون : أين أبوك ؟ •• يهمس بوفاته قبل تسعة أشهر • يعزى الزبون ، ويأخذ ما اشتراه ، وينصرف • تظل صـورة الأب فى المكتبة • أنفاسه تلاحقه • يتصوره ـ أحيانا ـ فى مجلسه على الباب ، يحادث جيرانه من أصحاب المكتبات والدكاكين المجـاورة ، والمقابلة ، أو يرد السلام على أصدقاء وزبائن يعبرون الطريق ••

قالت وهى تمسح دمعة فى طرف عينها :

ـ يجب أن تحرص على ذكرى أبيك ..

قال باستهانة :

ـ على ذكراه لا على جثته ! ..

زعقت :

ـ هل كنت تجرؤ على قول هذا فى حياته ؟ ..

قال كمن يهمس لنفسه :

ـ كنت أتمنى أن أحب أبى ، بدلا من أن أخافه ! ..

كانت تشقيه ملاحظات أبيه : هل تظن أنك تقوى على فعل ذلك ؟ .. أنت تفعل ما أقرره . وظيفتك الوحيدة هى المذاكرة . دع لى الأمر ولا تفكر فيه . سأقرر الصواب فيما بعد ..

وهمس ـ يوما ـ فى أذن الحلاق ، وغادر المكان . جرى الحلاق بالماكينة على رأسه فى منتصفها . قهرته المفاجأة ، فظل صامتا . أتم الرجل ما بدأه ، وان لم يفلح فى مغالبة الدموع التى طفرت من عينيه ..

تحشرج صوتها :

ـ ألم تكن تحب أباك ؟ ..

مسح الحجرة بنظرة غير واعية :

ـ كنت أحبه .. لكننى كنت أخافه أكثر ! ..

استطرد وهو يغمض عينيه بتأثر :

ـ ليتنى أطعته لأنى اقتنعت بآرائه .. لا لخوفى منه ! ..

***

عاد الى المقهى. يغادر المكتبة عقب آذان المغرب ، لا يترك المقهى قبل انتصاف الليل . أبدت أمه غضبها فى البداية ، ثم ألفت تأخره . ساعدها أن عودته الى المكتبة لم يكن مضى عليها أيام ..

قال جابر محجوب ، لما سحب كرسيا ، واقترب من لمة الأصدقاء :

ـ أهلا بريمة ! ..

قال بدر المنشاوى :

ـ هل حسبته أمك ! ..

دخلت به جلسات المقهى منذ عرف طريقه اليها ـ عقب وفاة أبيه ـ عوالم كأنها السحر . الأحاديث والمناقشات والدعابات والنكات والأسرار التى تتحدث عن أشياء لا يعرفها ، ولا رآها فى حياته من قبل . تفتحت عيناه ـ ووعيه ـ على عوالم ، لم



يكن اقتحامها مما يدور بباله • تبدو مخالفة لمـا يدور فى البيت، وما كان يشهده ، أو يشارك فيه ، فى الكلية ••

حين روى جابر محجوب عن الصهبة ، فى ساحة سـيدى نصر الدين ، ملكه الفضول ، فتمنى رؤيتها • أسرف فى السؤال عن البواعث والبدايةوالنهاية • رسم لكل شىء فى ذهنه صورة محددة ، وان هـمه أن يطابق ما تصوره فى موضع الصهبة ••

***

زاره أصدقاء المقهى ••

رحبت بهم أمه فى نفسها • تمنت أن يقنعوه بالخروج ، ولو الى المقهى • لزم ــ منذ الأصـيل المشئوم ــ غرفتـه • لا يغادرها الا الى الصالة ودورة المياه • يتجه مع كل صـوت فى الشارع الى النافذة المغلقة • يطيل التحديق من خصاصها • يلاحظ غياب ما يريب • اذا رن جرس الباب ، طلب التأكد من شخصية القادم ، وأسرع الى حجرته ••

رفضت أمه نصائحه لمـاجد :

ــ دعه يذهب الى عمله •• حتى لا أشقى به أيضا ••

قال محذرا :

ــ مكتبه فى مجلس الحى قريب من البيت ••

واستطرد بنبرة مشفقة :

ــ لا بأس ان اصطحب زملاء له فى الذهاب والعودة ..

قال بدر المنشاوى :

ــ أنت أخطأت .. ولكن الموضوع انتهى ! ..

هذا ما تظنه ! .. لكن الملامح التى التقيت بها فى الصهبة ، تلاحقنى ، تبين عن نفسها ــ عمدا ــ أسفل النافذة . حتى المرأتان اللتان رافقتا المنقبة . غالبت صيحة فزع لما أطالت احداهما التحديق من الرصيف المقابل ، والابتسامة الغريبة تشى بمعرفتها أنى أقف وراء النافذة المغلقة ..

قــال :

ــ وهؤلاء الذين يمرون أسفل البيت ..

قال المنشاوى :

ــ انهم من أبناء السيالة .. طبيعى أن يسيروا فيها ! ..

قال فى تأكيد :

ــ ما أعلمه أنهم ليسوا من الحى ولا من الأحياء المجاورة..

قال جابر محجوب :

ــ هل أصبحت شيخ حارة ؟ ..

أضاف المنشاوى فى اشفاق :

ــ الناس يلهون •• وقد شاركتهم لهوهم ••

هز رأســه بعصبية :

ــ النظام الدقيق ينفى أن ما رأيته كان مجرد لهو ! ••

وشى صوت المنشاوى بسخرية واضحة :

ــ هل ترى أنهم يعدون لقلب نظام الحكم ؟ ! ••

عندما قرر أن يصارحهم بما يعانيه ، تصــور أنهم سيشغلون بأمره ، يأخذون ويعطون ، يشيرون بما يجب فعله • أدهشته البساطة التى تلقوا بها حيرته ••

فوت ملاحظة المنشاوى ، وقال :

ــ انهم طريقة صوفية ترفض تسلل الغرباء اليها ! ••

قال المنشاوى :

ــ هذا ما تصورناه •• فلا تجعله تصورك ! ••

قال جابر محجوب :

ــ لو أنهم شاءوا أذيتك ، لفعلوا ذلك قبل أن تغــادر المكان ••

قال مذكرا :

ــ خشوا أفساد الطقوس ! ••

قال المنشاوى :

ــ أية طقوس ؟ ! ••

وشوح فى الهواء بيده :

ــ انها مجرد لعبة سخيفة ! ••

افتعل جابر محجوب ضحكة مبتورة :

ــ لعل المرأة تعانى الآن عذاب الشوق لقبلاتك ••

أضاف حسن الهن ، الموظف بقصر ثقافة الأنفوشى :

ــ أو لعلها تتحسس بطنها •• وتدعو لك بطول العمر ! ••

المطاردة التى لاحقته ثانى يوم ، آنسته دنيا جديدة لم يكن دخلها من قبل • لمح أبوه نظرته المتسللة الى فتـاة فى الطريق • دفعه بيد غاضبة : انه تعليمك أولا ! • حتى زميلاته فى الكلية ، كان شبح أبيه يرقبه وهو يتبادل واياهن الأحاديث العادية • ولمحت أمه ثانية ــ بعد زواج منيرة ــ بحقه فى الزواج • صرخ أبوه : لن أزوج تلميذا ! •

قال المنشاوى وهو يعيد فنجان القهوة الى الترابيزة :

ــ لو انهم يريدون ايذاءك •• فلن يصعب عليهم اقتحـام بيتك ! ••

واستطرد وهو يتهيأ للقيام :

ـ ليتك تفتح المكتبة •• وتنسى ما فات كأنه لم يكن ! ••

***

لمـا علا صوت أمي بالفرحة ، عرفت أنك أنت • غابت أصوات زوجك والأبناء ، وخفت حديثكما ، صار كالوشوشة ، أو كالهمس ، فعرفت أني أنا المقصود بالزيارة ••

لم أبرح مكاني في السرير • تعلقت عيناى بباب الحجرة المغـلق • غلب الهم شوقى لرؤيتـك ، فانتظرت ، حتى نقرت الباب ، وأدرت الأكرة • استنكرت من نفسي ـ فيما بعد ـ أنى ظللت في مكانى ، واكتفيت بالقول ، ربما دون أن أنظر ناحيتك :

ـ أهـلا ! ••

اصطنعت ابتسامة • ليست الابتسامة التى ألفتها منك • بدا فى اقبالك ناحيتى ما يشبه الاشفاق ، أو الارتباك ••

تمنيت أن تسلمى ، وتتركى الغرفة ، فأخلو ـ من جديد ـ الى نفسى • لكنك أطلت النظر الى أكداس الكتب التى اشتراها لى ماجـد ، منذ لزمت البيت • أقرأ وأقرأ وأقرأ • جزر أفر اليها ، بعيدا عن المنقبة والصهبة والمزاد والزغاريد والأدعيـة والابتهالات ، والمطاردة التى لا تنتهى ••

ــ متى تعود الينا ؟ ..

ــ وأين أنا الآن ؟ ..

ــ أنت مع الكتب ..

ــ القراءة عمل مفيد ..

ــ ومن ينكر ؟ ..

استطردت والألم فى نبرات صوتك يشرق بالبكاء :

ــ ولكن أمنا وماجد..وأنا أيضا .. كلنا نحتاج اليك !..

منذ أعلن أبى خطبتك لحسين الزنكلونى ، عرفت أنك ترفضين . شاركتك الرفض ، ربما للأسباب نفسها ، أو لأسباب أخرى : رأسه الضخم ، استطال فوق جسده النحيل ، تتوسطه عينان ضيقتان كالترتر ، تحتهما أنف مفلطح ، وشفتان غليظتان لا تبين منهما أسنانه . حتى لو شارك فى الأحاديث بتعليقات تعكس جهله بكل الأمور ، ما عدا عمله فى سمسرة الأراضى وبيع الشقق ..

لم أقل لك ، ولم تقولى لى . ولكن ذلك ما أكده صمت نظراتنا . كان أبى يلهث لتنفيذ ما أعلنه . حتى ما كان الزنكلونى أهمله مما وافق عليه ، أهمله أبى أيضا . أشفقت على نظرات الحيرة فى عينيك ، كأنك تطلبين الغوث . وكان الألم يمضنى ، فلا أقوى على فعل شىء ..

قلت :

ـ وأنا أحتاج للخروج من هذه الغرفة ..

التمع فى عينيك أمل :

ـ فلماذا لا تغادرها ؟

قلت مهونا :

ـ مشكلة سخيفة .. أفكر كيف تنتهى ..

أبان الألم عن نفسه :

ـ روت لى أمى كل شيء .. ولا مشكلة ! ..

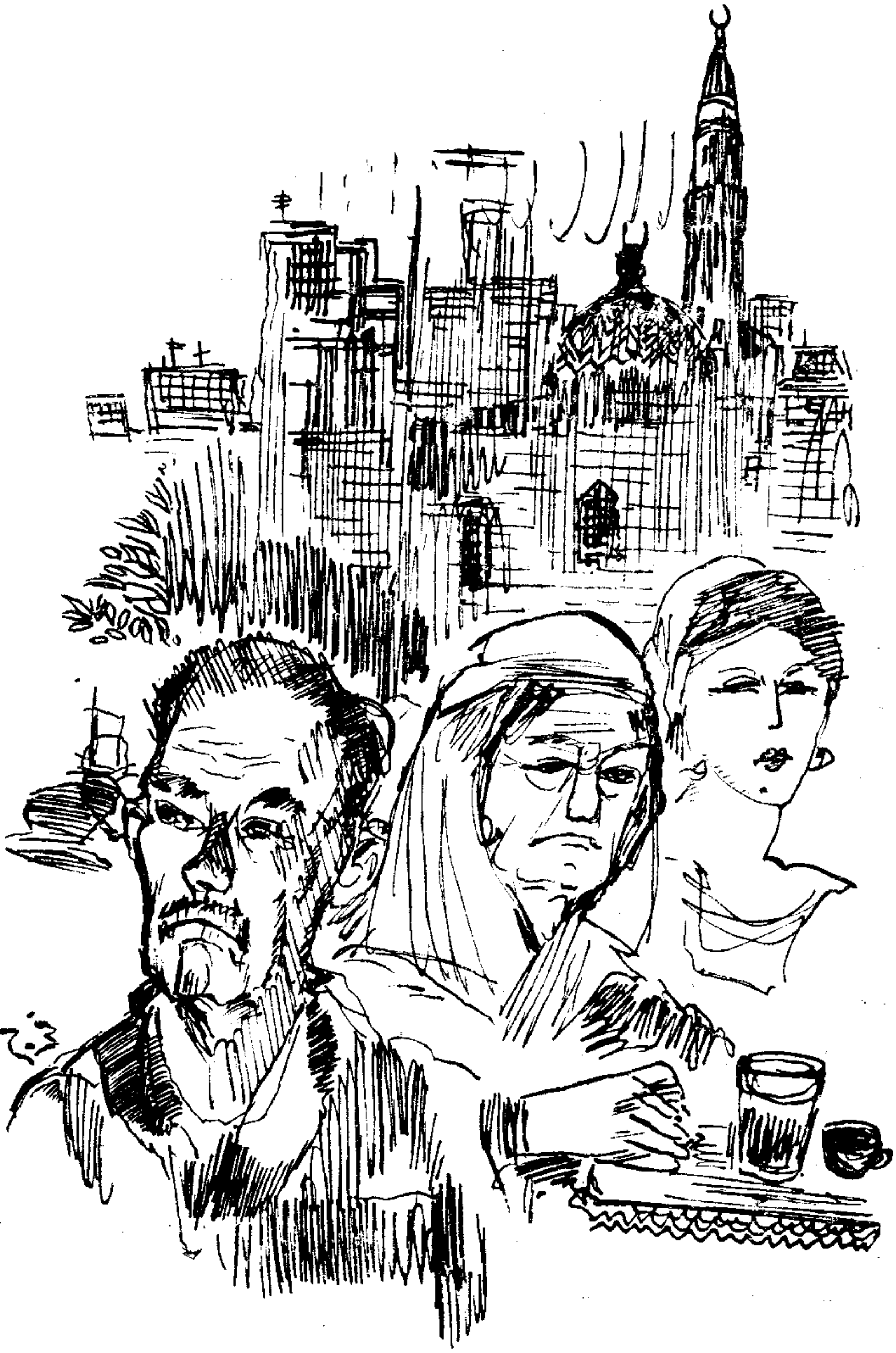
أضفت بصوت باك كالتوسل :

ـ عد الى المكتبة ! ..

***

لفته نشوة وهو يفتح المكتبة . كأن تلاطم الأمواج فى داخله هدأ . أزال التراب من الأرفف . أعاد تنظيم الكتب والكراسات والأدوات المدرسية . همه تعويض ما فات . تشاغل بكتابة أذونات توريد كراسات وكشاكيل وما ينقص المكتبة ..

أكثر من التطلع الى الطريق بعينين منتبهتين . لم يكن ثمة



ما يثيره ، أو يلفت نظره • الدكاكين على حالها ، ونوافذ البيوت تفتح لشمس الشتاء الدافئة ، والمـارة فى طريقهم من ـ والى ـ ميدان المساجد والحجارى ، وأصوات التهيؤ لمولد أبى العباس ، تتعالى فى الدحديرة الخلفية ••

تناهى أذان الظهر ••

فكر فى أداء الصلاة بياقوت العرش • ان لم تأت الى كل صلاة فى موعدها ، فسأعلم أنك هجرت طريق الله ••

لمـا أيقظته أمه فى الصباح ، كانت قد فارقته • التقى بها فى الميناء الشرقية • ترتدى الملاءة ، وان خلعت النقاب • تتأمل المراكب الواقفة كأنها تحصيها • بدت أجمـل مما رآهـا فى الصهبة • لاحظ أن ملامح وجهها لا تعكس انفعالا ما ، لا تبين عن مشاعر محددة • تأكد أنه سبق له رؤيتها ، وان صعب عليه تذكر متى التقى بها قبل أن ينزع عنها الحجاب يوم الصهبة • بوغت ، ففعل ما فعل • كانت جميلة الى حد أنها أنسته ما تربى عليه ، والنظرات المحيطة ، والأحلام ، والخوف من اللحظـة التاليـة ••

صعدا الى قلعة قايتباى • أطلا على الأمواج التى تصطدم بالصخور أسفل القلعة ، وعلى السفن البعيدة • كلمها عن أبيـه وأمه وأخويه • قال ان أخته ـ منذ زواجهما ـ لم تزر البيت

سوى مرتين ، أو ثلاث • أمه تحيا فى ذكرى الأب الراحل • تشرق ان جاءت سيرته • يلفها الغضب اذا تصرفوا بغير ما ألفت الأسرة فى حياته • ماجد منطو على نفسه • لا يحادثه فى شئونه ، ولا يطلب رأيه ، ولكنه يحبه • يتصور ــ حتى فى حياة أبيه ــ أنه أبوه • اذا تزوج ، وأنجب ، فلن يحب أبناءه مثل حبه له ••

فى شاطىء الأنفوشى خلعت حذاءها • أشفق على قدميها من سخونة الرمــال • تحدثت عن الصهبــة التى جعلت المستحيل ممكنا • كلمتــه فى احتضانه لها • فاجأها ، وفاجأ الآخرين • قال انه فوجىء هو نفسه • بهره حسنها ، فنسى المحاذير ••

بالقرب من سراى رأس التين ، نزعت الملاءة • بدا نهداها كبلورتين تغريان بالملامسة •••

استندت الى صخرة مستوية ، ونادته ••

اصطدمت الأمواج بصخور الشاطىء فى أنغام متلاحقة ، وأبانت قوى غامضــة عن سحرها وفتوتها ، وبدت السماء شديدة الزرقة ، وتقافزت الأســماك فوق المياه بما لم يره من قبل ، ورفرفت أشرعة المراكب ، وأطلقت سفن الميناء الغربية صفافيرها، وتناهى صــوت البروجى من الكليــة البحريــة ، وصفقت ــ بأجنحتها ــ أسراب النورس • حتى الأصــداف والطحالب والأعشاب ، اســتطالت وتكورت ، فتشــكلت مناظر غاية فى الجمال ، وسرت فى الرمال سخونة دافئة ، وأطل عليه أبوه من

فلعة قاينباى ، فابتسمت لارتباكه ، وقالت : لا تخف ! • وضربت أمه صـــدرها بيد الدهشـــة ، فتمنى رضاءها وعفوها عنه ، وتطوح الذاكرون أمام الباب الخلفى لســيدى البوصيرى ، واختفى الشيخ الدجيشى قبل أن يلحق به ، فى انحناءة الطريق الى الحجارى • وغلبه الخوف لمـــا تبين اختفاء أبيه وهو يسير فى غبشة الليل ــ خلفه ــ الى صـــلاة الفجر ، واســتند ماجد الى عامود بصحن أبى العباس ، يذاكر ، ويرنو اليه ، وتعـــالى الأذان ــ بلا ميقات محدد ــ من مسجد قريب ••

سرقـــه الوقت ، فأزمع الاستحمـــام ــ بعد العودة من المكتبة • يصلى أوقات اليوم كلها قضاء • من غد يصلى كل وقت فى وقته ••

قبل أذان العصر زاره ماجد :

ــ مبروك ! ••

رد بابتسامة ترحيب ••

مع أن فارق السن بينهما لا يزيد على عامين ، فان ماجد هو شقيقه الأصغر ، وهو ابنه • حتى فى حياة أبيه ، كان ذلك شعوره نحو ماجـــد ، يأخذه صمته وانطواؤه ، كأنه ليس فى البيت ، ولا منه ••

بدا ابتعاده عن المشاركة فى حياتهم اليومية ، كأنه حرص

على الابتعاد عما يغضب آباه ، فيلاحقه بالملاحظـات والشتائم التى يعانيها منصور فى اصراره على المناقشة ، وتوضيح وجهـة نظره . اذا نودى عليه لتناول الطعام ، جلس على المـائدة ، لا يشارك فى الكلام الا اذا سـئل . يجيب بكلمات مقتضبة ، وربما اكتفى بهزة الرأس ان كانت الاجابة المطلوبة نعم أو لا . يستكملون الجلسة ـ لدقائق ـ فى الصـالة . آما هو فيعود الى حجرتهما ، يغلقها عليه . انشغل ـ أيام الدراسة ـ بالمذاكرة. وبعد توظفه برئاسة الحى ، انشغل بالخرائط والأوراق ، يفردها على الترابيزة الصغيرة أمام السرير ، لا يغادرها الا الى قضاء حاجـة ..

قالت أمه :

ـ ماجد ابن أبيه ..

أضافت وهى ترمقه فى غضب :

ـ أنت لم تشبه أباك ، حتى فى ملامحه ..

قال بهدوء :

ـ هذا اتهامك ! ..

غلبها انفعال ، فقذفته بالمنفضة :

ـ أين تعلمت قلة الأدب ؟ ! ..

واتته جرأة ، فقال له أمام أمهما :

ــ لم يعد فى حياتنا ما يدفعك الى الانطواء ..

تساءلت الأم :

ــ ماذا تعنى ؟ ..

قال بسرعة كمن يفر من اتهامها :

ــ أريده أن يخرج من الصدفة التى التصق بداخلها ! ..

قالت الأم :

ــ دع أخاك فى حاله .. يكفى أنه أنهى دراسته دون متاعب ! ..

اطمأن ماجد الى انصراف زبون لم يجد الكتاب الذى طلبه ، ثم قال :

ــ تعمدت أن أكلمك بعيدا عن البيت ..

دهمه قلق . أهمل ما بيده ، واتجه الى ماجد بنظرة متسائلة ..

قال ماجد :

ــ أردت أن أسألك .. هل ما تفعله صواب أم خطأ ؟ ..

أعاد اليه السؤال :

ــ ماذا ترى أنت ؟ ••

غلبه ارتباك :

ــ ولا يغضبك رأيي ••

أشار بيده :

ــ لا تقله •• فقد عرفته ! ••

قال ماجد بنظرة متوسلة :

ــ صدقني •• يهمني أن تثبت للجميع أن ما اتخذته كان هو القرار الصواب ••

ومضى في اتجاه السيالة ••

***

الشيخ عرفة الدجيشي ••

خطرت له الفكرة ، وهو يسير أمام المسجد في طريقه الى المكتبة • ان لم تأت الى كل صلاة في موعدها ، فسأعلم أنك هجرت طريق الله ••

عرف الشيخ من أبيه • كان يؤدي صلاته في أبي العباس والبوصيري وياقوت العرش. ونصر الدين • مساجد أولياء الله • يلجأ الى بركتهم • يطلب الشفاعة والمدد • جلس الى درس

الشيخ الدجيشى بين صـلاتى المغـرب والعشـاء • أثارتـه الكلمات • نقل الى البيت ـ فى جلسة كل يوم ، بعد تنـاول العشاء ـ عظات الشيخ ، ما قرأه من آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، وسير الصحابـة والتابعين وأهـل الخطوة • قـال الشيخ •• لاحظ الشيخ •• تحدث الشيخ فى كذا وكذا •• دلنا الشيخ على ما كنا نجهله •• اتسعت حلقة الشيخ بالمريدين ••

اقتصرت صلاته ـ فيما بعدـ على ياقوت العرش ، وربما تردد على المسجد فى غير أوقات الصلاة • يجلس الى الشيخ ، يسأله ويطلب المشورة • يأخذ رأيه بتسليم ، فلا يناقشه • مرة وحيدة ، وجد فى رأى الشيخ ما يدعو الى الاعتراض • أهمل التأدب والمحـاذير ، حين اقترح الشيخ توجيه منصـور الى التعليم الدينى ••

ابتدره الشيخ :

ـ لم تأت فى موعدنا ! ••

قال بهمس معتذر :

ـ منعتنى ظروف ! ••

ثنى اليه نظرة متسائلة :

ـ طيبة ان شاء الله ••

وشى صوته بقلق :

ــ بل قاسية وغريبة ..

أضاف للتساؤل فى عينى الشيخ :

ــ أتيت لأطلب رأيك ..

روى عن المطاردة ، وان أهمل بواعثها . حذف ، وأضاف ، وبدل ، بما لا يسيىء الى صــورته أمام الشيخ . حتى المرأة التى باتت نهاره وليله ، تعمد أن يخفى حكايتها معه . أصــل الحكاية كلها ..

قال الشيخ الدجيشى :

ــ هل يطاردونك لمجرد أنك شاركت فى جلوتهم ؟ ..

قال موضحا :

ــ ربما لأنى مارست ما كانوا يؤدونه من طقوس ..

قال الشيخ والغضب لائح فى عينيه :

ــ لم أسمع عن طريقة تطارد من يؤدى طقوسها ..

قال كأنه يستغيث :

ــ أتيت للسؤال : ماذا أفعل ؟ ..

واجه الشيخ عينيه :

ـ سلنى عما يقع فى نفسك ••

قال بتسليم :

ـ مشكلة أعانيها ••

دون أن يحول نظرته :

ـ أنا أنصت اليك ! ••

وروى للشيخ ما حدث • أعاد الحكاية من بدايتها • استعاد ما كان أهمله ، وان ألقى على الأحلام عبء ما جرى ••

قال الشيخ :

ـ أحلام الجماع هلوسة ولا اعتبار لها ولا تأويل فيها ••

أضاف وهو يربت على كتفه :

ـ أذكر ربك بصدق •• تتطهر النفس من أدرانها ! ••

وقال مؤكدا :

ـ كل شىء غير ذكر الله وسوسة ! ••

همس بخوف :

ـ وهؤلاء الذين يقتفون خطواتى ؟ ••

سأل الشيخ :



ــ هل آذوك ؟ ..

علا صـــوته :

ــ وهل أنتظر ؟ ! ..

لم يجاوز الشيخ هدوءه :

ــ المصادفة تلقى بهم فى طريقك ..

وهو يغالب اليأس :

ــ وتضعهم تحت نافذتى ؟ ! ..

قال بلهجة باترة :

ــ انس الأمر برمته ..

واستطرد كأنه تذكر شيئا :

ــ ألاحظ أن المشكلات عرفت طريقها اليك منذ وفـــاة أبيـــك ! ..

***

قال لنفسه وهو يتأمـــل منيرة فى حركتها الدائبة داخـــل الشقة : هل ابتعادها عن بيتها لأنها تشفق عليه مما يحياه ، أم أنها تحاول الابتعاد عن حياة زوجها ؟ ..

عندما تناول الزنكلونى الغداء معهم ، تصور أنها ستعود الى بيتها معه • لكن الرجل قال وهو ينظف أسنانه بظفره :

ــ أنا أقدر الموقف •• ولا بأس من أن تظل هنا حتى تنتهى الأزمــة ! ••

وظلت فى البيت • اختلطت مشاعره ، فلم يعد يدرى ان كان يسعده أن تظل معهم ، أم تعود الى بيتها ••

أدهشه توالى الأحــداث ، بما يصعب أن يقع فى وقت واحد فى مكان واحد • لم يحدث أمه ولا أخويه عنها • خشى أن ينكروا وجودها مثلما قابلوا ــ بنظرات غير مصدقة ــ ما قاله عن الصهبة ••

وقالت منيرة :

ــ أحيانا نخلط بين أحلامنا وما جرى بالفعل ••

ضايقته ملاحظتها ، وان أثاره اختلاط الحلم باليقظــة ، لا يدرى ان كان ما حدث قد حدث فعلا • يضايقه أنه يستيقظ وقد غلبه الحزن ، أو الفرحة ، كأنه قد بذل جهدا هائلا • ناقش وسأل وأجاب وضحك وهمس وصرخ وتحرك بما يتعبه • يجول بنظره فيما حوله ، كمن يستوثق أين هو ••

سارت به الى حيث تسكن • شوارع من الاسكندرية ،

وان لم يسبق له التردد عليها . النـاس من حولهم غائبو الملامح ، فيما عدا الرجال الثلاثة والمرأتين فى الصهبة ..

بدت الى جانبه هادئة ومستكينة ، كأنها تعرفه من زمان . تتلامس أيديهما فلا تنفر ، أو تبدى انزعاجا ..

لم يسـألها ان كانت من بحرى ، أو من حى آخر فى الاسكندرية ؟ .. ومن زوجها ؟ .. وماذا يعمل ؟ .. وهل كان بين اللمة المحيطة ؟ .. ولماذا سكت حين رآه يحتضنها ؟ ويقبلها ؟ .. وما مدى تأثير الشيخ ونفاد كلمته ؟ ..

واتته الجرأة ، فسألها :

ـ بعد نزع الحجاب .. هل ..

قاطعته وهى تتحسس ـ بعفوية ـ بطنها :

ـ قالت الداية انى حامل ..

قال باستغراب :

ـ لم تكن الصهبة تسلية اذن ؟ ! ..

وشى صوتها بحدة :

ـ من تظننى ؟ ! ..

قال وهو يضغط على راحتها :

ـ سامحينى .. فوجئت بما حدث ! ..

حدثته عن الزوج الذى طال انتظـاره للولد • رضيت بالوقفة المتعبة ، وبكشف سرها ، والزحام ، والأذكار والدعوات والابتهالات ، كى تبرأ مما بها ، ويزول العقم ••

قاوما زحام شارع الميدان ، الى نهايته فى المنشية ••

وهما يقفان تحت النصب التذكارى للجندى المجهول • يتطلعان الى الميناء الشرقيـة • فى اليمين مبنى السلسلة ، وفى اليسار قلعة قايتباى ، ومتحف الأحياء المـائية ، ومئذنة أبى العباس تعلو أسطح العمارات المطلة على الكورنيش ، قـال :

ـ تعبت من المطاردة ••

قالت باستغراب :

ـ ألا تريدنى ؟ ! ••

وهو يمسح المكان بنظرة غير واعية :

ـ من كانوا فى الصهبة ••

ابتسمت ، فبدا ضرس ذهبى فى جانب فمها :

ـ أنت الآن منا •• فكيف يطاردونك ؟ ! ••

غالب توتره :

ـ لم أعد أغادر البيت •• يقفون أسفل النافذة ، وأمام المكتبة • أراهم فى كل مكان ••

داخل ابتسامتها اشفاق :

ــ هل آذوك بشيء ؟ ..

برقت عيناه كمن يحاكي :

ــ نظراتهم تنذر بالشر المتوقع ..

أعادت السؤال :

ــ هل آذوك ؟ ..

بصوت كالحشرجة :

ــ فماذا يريدون ؟ ..

وهي تمسح على بطنها بيد مترفقة :

ــ منذ الصهبة .. أنت منا ! ..

واجه عينيها :

ــ هل أهجر حياتى ؟ ..

أخلت وجهها لدهشة :

ــ شاركت فى المزاد باختيارك ..

هزمه التوتر :

ــ لهوتم .. فشاركت فى لهوكم ..

قالت بغضب :

ــ ما فعلته كان لهوا ؟ ! ..

دهمه ارتباك ، فتمتم كالمعتذر ..

أهملت يده ، ومضت فى شارع الميدان ..

اصطدم بالزحام ــ فى لحاقه بها ــ ولم يسعفه التلفت .

***

دخل مسجد ياقوت العرش ، بعد أذان الفجر بدقائق ..

توضأ ، وارتدى بالطو أبيه فوق البيجامة ، ودس قدميه فى صندل . بدا مسجد المسيرى من الداخل خاليا ، الا من ثلاثة أفراد ، استندوا الى الجدار الملاصق للمنبر . قرر أن يؤدى الصلاة فى سيدى نصر الدين . ثم واصل السير ــ بكلمات الشيخ الدجيشى ــ الى سيدى ياقوت العرش : كنت أعدك لأخذ العهد ، لكنك خاصمتنا منذ رحيل أبيك ! .. الزم حضرتى، تجن خيرا باذن الله ! ..

لمح الشيخ جالسا فى منتصف الصحن الخالى . أولى ظهره الى الطريق ، وانشغل بأدعية ، فلا يتلفت حوله ..

جلس وراءه ينتظر انتباه الشيخ ، وقدوم المصلين ..

أخيرا ، عدت الى الصلاة ؟ ! . هل أحدثه عن الظروف

القاسية ؟ •• ولكن ما شأن الشيخ بما جرى ؟ •• حدثته من قبل ، فصعب أن أخبره بالأمر كله ، لحظة الانفعال التى لحقتها المطاردة • لماذا لا أحدثه عن الأيام التالية ؟ •• سأنتظم من الآن فى مواعيد الصلاة • والمكتبة •• سأل : هل تأخذ يومى ؟ •• أغلق المكتبة قليلا • أصلى وأعود • الصلاة هى الهدف • لا يهم ان أديتها فى المسيرى أو نصر الدين أو ياقوت العرش أو أبى العباس أو البوصيرى • الحى يشغى بالمساجد • سؤال الشيخ كأنه الاتهام : هل يطاردونك لمجرد أنك شاركت فى جلوتهم ؟ ! ••

لم يخطىء الشيخ حين بذل النصيحة فى الرواية الناقصة • لو روى ما جرى منذ البداية : أحاديث المقهى ، وسعيه الى الصهبة ، ورفع النقاب ، والوجه الذى اجتذبه ، ففعل ما فعل • الصلاة فى مواعيدها تهبه الحق فى الاعتذار عما أخفى ، واعادة رواية ما حدث ، ما سبق قوله ، وما تعمد اغفاله • يبذل الشيخ النصيحة ، يعينه على الفرار من المطاردة التى أرهقته • عانى مطاردتهم أمام المكتبة ، وأسفل البيت ، وفى الطريق ، داخل بحرى وخارجه • كأنهم يترصدون خطواته ، لا يقتربون منه أو يحادثونه • يكتفون بنظرة صامتة ، نظرة حيادية تخلو من معنى محدد • قالت : لا تخف ! •• زارته ، وغادرا البيت ، وسارا فى زحام النهار ، وفى هدوء ما بعد صلاة العشاء •• لكن

المطاردة ظلت على حالها ، والنظرات هى هى ، والتعليقات المهونة والمكذبة تكتم ما يحيا داخله ، فلا يقوى على البوح ..

قدم مصلون ، اتجهوا الى دورة المياه ، أو كبروا لأداء ركعتى تحية المسجد ..

أطلق – غصبا عنه – صيحة فزع ، لما أولاه الشيخ وجهه ..

لم يكن هو الشيخ الدجيشى . تبين فى الضوء الخافت ، المشوب بالظلال ، ملامح شيخ الصهبة .

اتجه اليه الشيخ بابتسامة مطمئنة ..

اصطدمت ساقاه – وهو يتراجع – بشراشيب الحصير . تماسك ، واندفع نحو الباب ..

***

قال بدر المنشاوى :

– جابر محجوب يخاف الظلام .. أما أنت ، فتخاف اليوم كله ! ..

لم يعد يغادر البيت الا اذا اصطحبه أصدقاء المقهى ، اليه ، أو الى المكتبة . يتناوبون مرافقته ، ويوصون جيران المكتبة . يلازمونه فى العودة ، لا ينصرفون حتى يولى الطريق ظهره ..

قـــالت :

ــ لا تخف ! ..

ــ منذ رأيت شيخ الصهبـــة فى صحن المســـجد ، لم يعد بوسعى الذهاب الى أى مكان ..

قـــالت :

ــ لا تخف ! ..

قـــال :

ــ أتشوق للقائنا .. وأخافه ! ..

قـــالت :

ــ أترك البيت ..

قـــال :

ــ حتى الزحام يخيفنى ! ..

قال المنشاوى :

ــ هذه ليست مشكلة أيام .. ولابد من حل ! ..

أضاف احيرته القاسية :

ــ حقك وواجبنا .. أن نصحبك حتى تزول الغمة ! ..

قال جابر محجوب :

ــ أهلا يا حاج ! ••

بدا له القادم ، منذ دخوله الى المقهى ، مناداته على عامل النصبة ، دعاباته البذيئة وشتائمه ، الاقتراب بكرسى ــ صادفه ــ من مجلسهم ، أن الجالسين لا يحبون صحبته ••

ذوت المناقشات ، وحل صمت متوتر ، وانشغل المنشاوى بتقليب كوب الشاى ، بينما أسند جابر محجوب كرسيه الى الحائط ، وأغمض عينيه فيما يشبه الارهاق ••

حدق القادم فى منصور سطوحى ، وقال :

ــ عرفونا بالأستاذ ••

قال المنشاوى :

ــ منصور سطوحى •• جارنا بالسيالة ••

قــال :

ــ هذه أول مرة يشرف القهوة ••

قال المنشاوى :

ــ عرفناه بعد ستة أشهر من غيابك ••

أضاف وهو يفتح الطاولة :

ــ فترة طويلة كما ترى ! ..

لاحظ حركته القلقــة . يهرش باصبعه أوسط رأســه ، يتثاءب ، يمد ساقيه ، يثنيهما ، يتطلع الى حركة المقهى حوله ، يغمض عينيــه ، ينظر الى نفسه كأنه يتأمــل ثيابه . ثم ينظر ــ بعفوية ــ فى غير اتجاه ..

تجاهل الرجل حين لمح نظرته المتسللة ..

هل يعرف سره ؟ ! ..

التقى بها الليل بطوله ..

دخلت عليه بثوب العرس . قفز من السرير ــ بفرحــة ــ واحتضنها . مسحت على ظهره ، ولامست آنفاســها أذنه . تركت أصابعه تزيح الطرحة البيضاء ، فتبين عن شعر منســدل فاحم الســواد . قبلها ، فاستجابت . مال بهــا الى السرير ، فتمددت ، وتناهت أناشيد الحضرة ، وان غاب مصدرها ..

تشاغل بمتابعة المنشاوى وجابر محجوب ، تشاغلا بلعب الطاولة . بدا له المقهى ــ منذ قدم ، للمرة الأولى ، اليه ــ عالما مغايرا . هذا الرجل ــ بنظراته المقتحمة ، وبذاءاته ــ يختلف عما بدأ يألفه فى جلسة المقهى ..

أعاد النظر حوله : آفندية وعمال وصيادون وسائقو تاكسى وكارو وباعة يانصيب ومحاسيب لأولياء الله من ساكنى الحى

وحاملو مجامير وسماسرة وشيالون ووجوه تنطق بالطيبة وأخرى تشى بالنخابث وبدل قديمة وجلابيب وسيالات ••

أدرك أن المقهى ليس مقصـــورا على من ألف رؤيتهـــم ومجالستهم ، انما هو مفتوح لكل من يتردد عليه ، حتى تجار المخدرات ، والقوادين والبلطجية ••

بدا على الرجل ضيق من انصرافهم عنه • تصنع اللامبالاة ، وزاد اجتراؤه • طعم كلماته بتعبيرات نابية وشتائم ، حتى لو لم يحتمل الأمر • لمجرد أن يثير الجالسين ، فيدعوهم الى الرد ••

قال وهو يربت على ركبة منصور بأصابعه :

ــ شرفنا فى البلقطرية يا أستاذ ••

وغادر المقهى ••

قال المنشاوى لنظرة منصور المتسائلة :

ــ هذا •• الحاج قدورة •• ثم انس الاسم ! ••

همس :

ــ لمـــاذا ؟ ••

قال حسن الهن :

ــ تاجر حشيش بالبلقطرية ••

قال جابر محجوب :

ــ لم يعد تاجرا للحشيش •• الأقراص الآن أكسب ! ••

ــ ولمـــاذا تصادقونه ؟ ••

قال المنشاوى :

ــ قل لمـــاذا يفرض نفسه علينا ؟ ! ••

قال جابر محجوب : أهـــلا يا حاج ! • هـــل التقى به أو شاهده من قبل ؟ • البشرة المجدورة ، والشعر الأكرت ، والفم الذى يخلو ــ أو يكاد ــ من الأسنان • ربما التقى به فى شوارع بحرى ، أو أنه تردد على المقهى ، وان لم يجلس اليهم ••

أعاد السؤال :

ــ اسمه الحاج قدورة ؟ ••

وأضاف متذكرا :

ــ قلتم ان ناس الصهبة ليسوا من بحرى ؟ ••

هز المنشاوى رأسه فى تأكيد ••

هتف منصور سطوحى :

ــ لكننى رأيت هذا الرجل فى الصهبة ••

وسرح ــ لحظات ــ فى الملامح ، وتذكر تفصيلات ••

قـال :

ـ هذا الرجل هو واحد من الثلاثة الذين رافقوا المرآة من البيت الى ميدان سيدى نصر الدين ..

***

غادر نقطة الأنفوشى وهو يتلفت . عادته التى آلفهـا فى الفترة الأخيرة . تبعه بدر المنشاوى وجابر محجوب . لم يعودا يفارقانه فى خروجه من البيت ، وعودته اليه ..

قال له الضابط :

ـ استدعيناك لنناقشك فى بلاغك ! ..

قال بلهفة :

ـ ماذا قالوا ؟ ..

سأل الضابط :

ـ من هم ؟ ..

ـ أصحاب الصهبة ..

ـ أى صهبة ؟ ..

داخله قلق :

هل تعنى ؟

وهو يقذف الهواء بيده :

ـ كل التحريات أثبتت أن الصهبة التى أبلغت عنها من شغل خيالك ••

بحلقت عيناه :

ـ لكننى شاهدتها بنفسى ••

هز الضابط رأسه :

ـ حتى رواد المقهى نفوا أنهم حـادثوك فى الأمـر من أصـله ••

لم يخف دهشته :

ـ بدر المنشاوى وجابر محجوب ••

قاطعه الضابط :

ـ وحسن الهن وغيرهم •• أجمعوا على أنهم لم يروا شيئا •• ولم يحادثوك فى أى شىء مما تصورته ••

أهمل ما حرص عليه من تأدب :

ـ أنا لم أتصور ! •• كل ما رأيته صحيح •• وشاهدته ••

صاح الضابط :

ـ هل تتعاطى شيئا ؟ ••

قاوم انفعاله :

ـ حتى السيجارة لا أدخنها ••

تخلل صوت الضابط رنة سخرية :

ـ اذن •• تغط جيدا قبل أن تنام ! ••

هل أخطأ بسماع نصيحة منيرة : لمــاذا لا تقدم بلاغا الى النقطة ، لتوقفهم عند حدهم ؟ ••

ـ أنت اذن تصدقين ما حدث ••

قالت باستغراب :

ـ ولمــاذا أتصور أنك تكذب ؟ ••

مسح جبهته براحته :

ـ بدأت أشك ان كان ما عشته بنفسي قد حدث فعلا ! ••

رافقه المنشاوى وجابر محجوب الى نقطــة الأنفوشى • أذهله الضــابط بما رواه عن أصدقاء المقهى • هــل اجتذبتهم المؤامرة ، فشاركوا فيها ؟ •• وهل هما يصحبانه لحمايته أم لمراقبته ؟ •• وهل أتى الحــاج قدورة الى المقهى من نفسه ، أم أنهما دلاه على مكانه ؟ •• ولمــاذا وافق على فكرة ابلاغ الشرطة ؟ ••

ظل ـ فى طريق العودة ـ صامتا • لم يشر الى حواره مع

الضابط ، حتى أوصله صديقاه الى البيت ، فسلم ، وصعد . تصور أنه سيزيح عن نفسه هما ثقيلا ، يوكل الى الشرطة ملاحقة هؤلاء الذين يطاردونه بقسوة . حتى المساجد القريبة لم يعد يتردد عليها . يتأكد من الأصوات جيدا قبل أن يفتح باب الشقة . قرر أن يخرج الى الناس بعد أن تصل الشرطة الى المطاردين .. لكن الشرطة خذلته ، وأصدقاءه كذلك ، وحاصرته الحيرة ..

نظرت منيرة اليه ، ففطنت الى ما حدث ..

قالت مهونة :

ــ المشكلة الآن فى يد الشرطة .. فلا تشغل بالك ..

تداخلت فى صوته الحشرجة :

ــ الشرطة تنكر وجود مشكلة فى الأصل ! ..

قالت بثقة :

ــ منذ قدمت بلاغك .. هى المسئولة عن كل ما يحدث لك ..

غالب تغير صوته :

ــ هل أقاضيهم بعد قتلى ؟ ! ..

ربتت على كتفه باشفاق :



ـ لا تعذب نفسك ! •• لو أن الشرطة وجدت ما يدعو الى تنبيهك •• فلن تسكت ! ••

هزمته الحيرة :

ـ من يدرى ؟ •• ربما الشرطة نفسها تتقى شرورهم ؟ ! ••

***

صحا بعد الفجر بقليل ، اللحظات التى يعمق فيها الظلام فلا تبين المرئيات عن شيء • أصوات الأذان ، وأصداء الصلاة ، وأناشيد الحضرة ، وتكبير الحجاج ، ودعوات الزائرين للأضرحة ••

حين سلم على المنشاوى وجابر محجوب ، وأولى الطريق ظهره كان قد انتوى أن يكون هذا هو آخر عهده بهما ، لا يرافقانه ، ولا يفتح المكتبة ، ولا يتردد على المقهى • يلزم حجرته ، فلا يهجرها ••

جر وراءه من نقطة الأنفوشى الى البيت خيبة أمل قاسية ، أذهلته عن الاجابة عن السؤال الذى أثاره فضول محجوب والمنشاوى : ماذا قال له الضابط ؟ ••

لما سلم ، وأولى الطريق ظهره ، كان قد اتخذ قراره بأن يلزم البيت ، لا يغادره • لا يرى أحدا ، ولا يراه أحد ••

تعالت زغاريد ودعوات وأصوات طبول ومزامير ونايات ودفوف ودربكات وشخاليل ، تصور ـ لفرط اقترابها ـ أنها فى داخل الشقة ..

انتطر من فراشه ..

جرى الى الصالة . أمه ومنيرة وماجد . غلبتهم الحيرة ، فاكتفوا بتبادل النظرات ..

قـال :

ـ هذه أصواتهم ..

تساءلت الأم :

ـ من هم ؟ ..

همس :

ـ الصهبة ! ..

اندفعوا ـ لاندفـاعه ـ نحو النافـذة .. أطـلوا من الخصاص المغلق . الاعلام واللافتات والبيارق ، والعشرات من الخلق فى الشـارع الضيق أمام البيت . تلاصقت الأكتـاف ، وتطوحت الرءوس ، واهتزت الأجسـاد والأيدى ، وارتفعت الأصوات بالتهليل والدعوات والصلاة على النبى ..

قـال :

ـ لم اكن أحلم ولا واهما اذن ؟ ! ••

زاد من الطريق تلاغط الأدعيـة والابتهالات والزغاريد ودقات الطبول والدفوف وعزف المزامير ••

شاهد المرأة وسط وجوه يعرفها ولا يعرفهـا • أمسكت بالدف فى يدها ، تسـابق الجميـع بضربات عالية ، متوالية • يعلو صوتها بأغنية صعب عليه ـ لتلاغط الأصوات ـ تبين كلماتها • انحسرت الملاءة الى ما فوق بطنها الحبلى ، واستكانت عيناها ، وتناثر شعرها بهزة الرأس المصاحبة لتوالى الضربات على الدف • كأن الوجد مسها ، فلم يعد يشغلها سـوى الضرب على الدف بتلاحق لا ينتهى • لم تعد هى الفتاة الهادئة التى زارته فى حجرته ، وسارت معه على رمال الشـاطىء ، وعلى الكورنيش ، وخاضت بجانبه زحام الشوارع • ذابت فى الوجد ، فأغلقت عينيها ، وسارت ـ بتدافع الصهبة ـ وعلا الدف ، وهبط ، تلاحقه الضربات بآخر ما عندها ••

لم تقتصر القوة الدافعة على ما يتناهى اليه من النافذة • انبثقت من داخله ، غالبت ارادته ، قوة غير طبيعية ، لا عهد له بها ، تستحثه ، تدفعه بعيدا ، الى حيث تمضى الصهبة • وهمس فى أعماقـه هاجس : لكى تفر مما يشغلك ، اقذف بنفسـك داخـله ••

مضى فى اتجـاه السلم ، لا يأبه بدهشـــة ماجد ومنيرة ، ولا صراخ أمه ..

التفتت الأم الى أخويه بحيرة .. تساءلت وهى تغــالب نشيجها :

ــ هل انجذب ؟ ! ..

مصر الجديدة ١٩٨٩/٥/٦ ــ محمد جبريل

للمــؤلف ..

١ ـ **تلك اللحظـة** (مجموعــة قصص) ١٩٧٠ ـ لجنــة النشر للجامعيين .

٢ ـ **مصر فى قصص كتابها المعاصرين** (الكتاب الحائز على جائزة الدولة) ١٩٧٢ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣ ـ **الأســـوار** (روايــة) ١٩٧٣ ـ الهيئــة المصرية العامــة للكتـــاب .

٤ ـ **انعكاسات الأيام العصيبة** (مجموعــة قصص) ١٩٨١ ـ مكتبة مصر .

٥ ـ **امام آخر الزمان** (رواية)١٩٨٤ ـ مكتبة مصر .

٦ ـ **مصر .. من يريدها بسوء ؟** (مقالات) ١٩٨٦ ـ كتــاب الحريــة .

٧ ـ **هــــل ؟** (مجموعة قصص) ١٩٨٧ ـ الهيئة المصرية العامة للكتـــاب .

٨ ـ **من أوراق ابى الطيب المتنبى** (رواية) ١٩٨٨ ـ الهيئــة المصرية العامة للكتاب .

٩ ــ **قاضى البهار ينزل البحر** (رواية) ١٩٨٩ ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

تحت الطبع :

١ ــ **قلعة الجبل** (رواية) .

٢ ــ **المجاديل** (مجموعة قصص) .

٣ ــ **النظر الى أسفل** (رواية) .

٤ ــ **حكايات عن جزيرة فاروس** (رواية) .

٥ ــ **مصر فى قصص كتابها المعاصرين** ــ الجزءان الثانى والثالث .

رقم الايداع ١٩٩٠/١٩٩٥

الترقيم الدولى ٨ ــ ٢٣٤٩ ــ ٠١ ــ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذه الروايـة .. اضافـة جديـدة ومتميزة إلى العـالم الروائى للكاتب المبدع محمد جبـريل .. الـواقع يختلط بالخيال ، الحلم بالحقيقة ، الأسطورة ولحظات الـوجد الصـوفى والمشكلات الآنيـة . تبدأ الأحـداث بالصهبـة الصاخبة التى يجد المرء نفسـه جزءا منهـا وتنتهى بها كذلك . ولكن البداية تبدأ قبل الأحداث ، ويغيب البطل فى زحام الصهبة فتبين التساؤلات والتوقعات عن ملامحها غير المحددة .

١٢٥ قرشـــاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب